منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٤

المسلمون في صقلية

للدكتور مارتينو ماريو مورينو

استاذ اللغتين الحميرية والحبشية في الجامعة اللبنانية

الطبعة الثانية



بيروت

١٩٦٨

المُسلمونَ في صِقليَة

منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٤



المسلمون في صقلية

للدكتور مارتينو ماريو مورينو

استاذ اللغتين الحميرية والحبشية في الجامعة اللبنانية



بيروت ١٩٦٨

هذه محاضرات خمس القاها الاستاذ الدكتور مارتينو ماريو مورينو ، استاذ اللغتين الحِمْيَرية والحبشية في الجامعة اللبنانية ، والاستاذ المحاضر في تاريخ الادب العربي في صقلّية. تناول فيها حياة المسلمين في تلك الجزيرة تاريخاً ، وادباً ، وفنّاً ، ومدنيةً عامة ؛ وما غرسوه في انحائها من آثار تجاوزت زمن إقامتهم فيها ، فأينعت بعد رحيلهم عنها. ولا يخفى ان أكثر هذه النواحي العربية في صقلّية كانت مجهولة لدى ادباء الشرق ومؤرّخيه ، حتى جلاها درس العالم ، وبيان الاديب ، واسلوب المحاضر الجذّاب ، وعربية المستشرق القدير. فتضاعفت الفائدة ، وتضاعف الشكر كذلك!

١

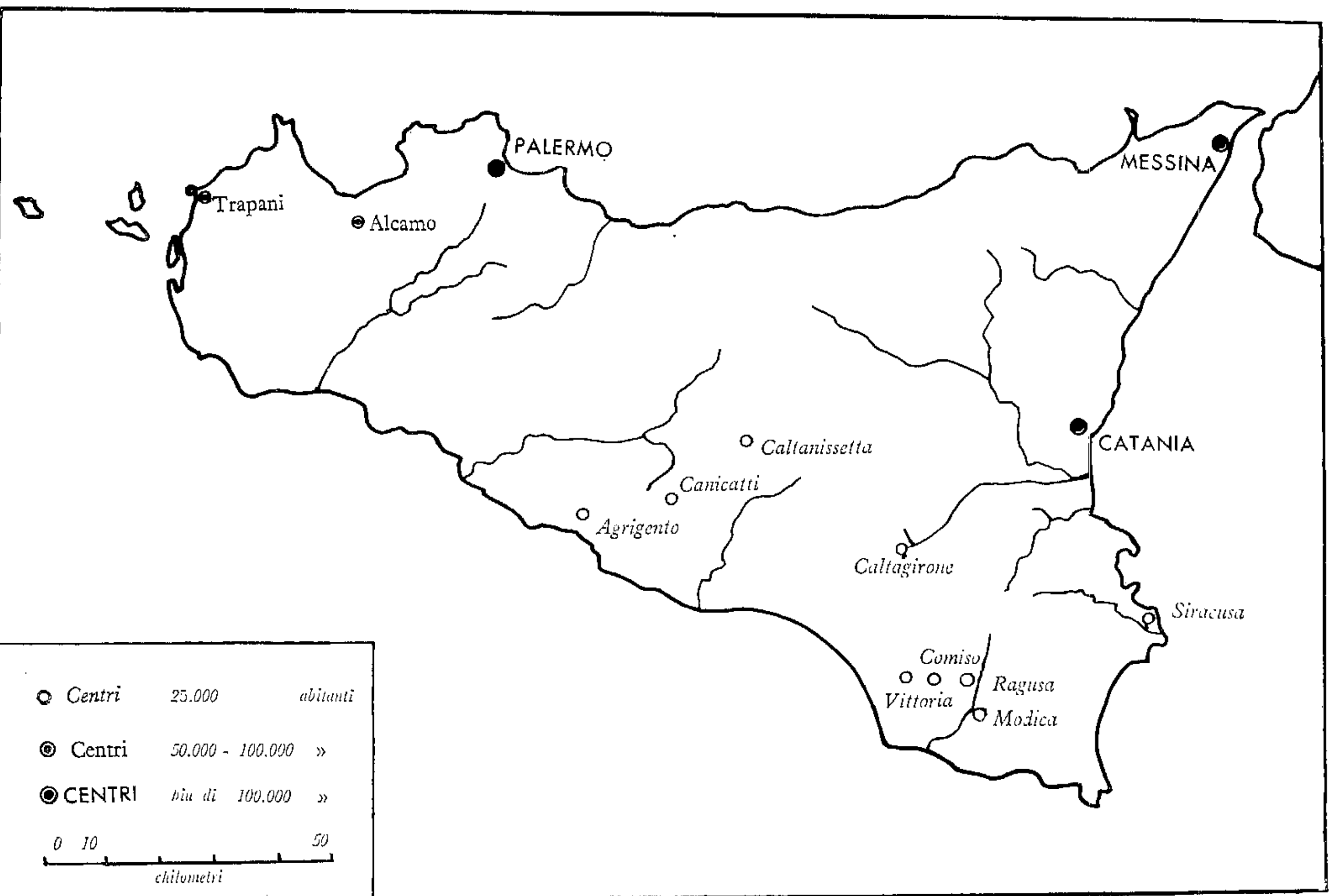
صقلّية معترك حضارتين

من الفنيقيين الى الفتح الاسلامي

جغرافية صقلية ابتدئ بمقدّمة جغرافية وجيزة لا بدّ منها لمعرفة المواقع التي سأتكلم عنها : جزيرة صقلية شبيهة بمثلّث ضخم اطرافه حرف المنارة (Punta del Faro) اوراس بيلورو (Capo Peloro) ، وراس بئيو (Capo Boeo) او ليليبيو (Lilibeo) ، ورأس العصفور (C. Passero) او راس التيارات الذي يليه جنوباً . وهي محاطة بثلاثة ابحر : البحر اليوني (Mare Ionio) شرقاً ، والبحر التيريني (Mare Terreno) شمالاً ، والبحر الصقلي او الافريقي جنوباً وغرباً . ومساحتها خمسة وعشرون الفاً واربعمائة وستون كيلومترًا ، اذا حسبت معها الجزيرات المحدقة بها . ويفصل بينها وبين شبه الجزيرة الايطالية بوغاز عرضه ٣ كلم فقط. واهم مدنها على شاطئ البحر التيريني قاعدة ذلك المثلّث ترميني أيريسه (Termini Imerese) وپالرمو (Palermo) عاصمة صقلية ، ومفتنة من مفاتن الطبيعة تأخذ العيون بخليجها وسهلها الاخضر المذهّب المسمّى بالغوطة الذهبية. وتليها تراپاني أو آترابني (Trapani) في خليج آخر . اما الشاطئ الغربي فاهمّ امصاره مدينة (Marsala) وهو اسم عربي : مرسى علي ، مشهورة في التاريخ الايطالي الحديث لان غريبالدي نزل فيها مع رفقائه الالف لما جاء مفاجئاً لفكّ الجزيرة من نير البربون وضمّها الى ايطالية ، ثم بعدها مزاره (Mazara) واسمها عربي الصيغة ولكنه قديم يرجع الى عهد الفنيقيين والرومان وهي مشهورة في التاريخ العربي لكونها اول مرسى نزل فيه فاتحو الجزيرة المسلمون . ثم (Agrigento) بالعربية كَرْكِنته مع مرساها (Porto Empedocle) ، و(Gela) جيله التي كانت من عواصم اليونان . وتتتابع على شاطئ البحر

اليوني ، من الجنوب الى الشمال سيراكوزه (Siracusa) واوغوسطه (Augusta) وكتانيه (Catania) وتَوْرمينة (Taormina) ، المصيف المشهور المحبوب للقيصر غليوم الثاني ، ومسينا (Messina). ويطل على كتانيه جبل إتنا(Etna) البركان الحيّ الذي لا يطيل منامه الا للاستيقاظ فجأة ودفق نيرانه الهائلة واحجاره السائلة . وفي داخل البلاد (Alcamo) العربية الاسم من علقمة،(Castro Giovanni)وبالعربية قصر ياني مشتقاً من اسمها القديم(Enna)، و(Caltanisetta) اي قلعة انيس وكلتاجيرونه (Caltagirone) . وتبدو صقلية في مجموعها ارض جبال وهضاب امهادها قليلة العدد محدودة المساحة . جبالها الاشدّ وعورة في الشمال في ثلاث سلاسل تقارب اعلى قممها الفي متر . وشرقي هذه السلاسل الثلاث اخدود عميق يكوّنه واديان احدهما اسمه النهر الملتوي (Fiume Torto) والثاني اسمه (Fiume Platani) . هذا الاخدود يقسم الجزيرة الى نصفين وله مكانة في التاريخ لانه كان ممرًا للفاتحين وللغزاة في كل العصور . وشرق هذه الحفرة جبال اخرى مرتفعة على الشاطئ ؛ وبجانب السلاسل الساحلية جبال داخلية . وجبل إتنا ، البالغ بفم بركانه ارتفاع ثلاثة آلاف ومئتين وثلاثة وستين مترًا (٣٢٦٣) ، عقدة جبلية على حدتها. وباقي الجزيرة هضاب من السهول اهمّها غوطة بالرمو التي ذكرناها، وسهل كتانيه الفسيح ، المتوغل في البرّ على خمسة وعشرين كيلومترًا .

مناخها ومناخ صقلية معتدل مع بعض صفات افريقية الشمالية الساحلية : سماؤها اميل الى الصحو منها الى الغيم ، لا ترسل امطارها غالباً الا في فصلي الشتاء والخريف مع عدم اشتداد البرد . اما الصيف ، وان كان محبوس الامطار ، فان الاطلال الغزيرة تحطّ من جفافه،وأما الثلوج فانها لا ترى الّا على الجبال الشاهقة. وعلى الجملة تبدو صقلية ، ان استثنينا قممها الشاهقة ، دهليز ليبية وتونس من جهة المناخ . اما انهارها ، فانها ليست بكبيرة والتي مصبها البحر التيريني اشبه شيء بالاودية العربية في انقطاع سيلانها عند انقطاع الامطار. وان افتخر احد منها باسم يخيّل اليك انه مثل سميه الوادي الكبير في اسبانية وشقيق هذا النهر هو النهر الملتوي (F. Torto) الذي ذكرناه . والانهر المُنصَبَّة الى البحر الافريقي كالپلاتني (Platani) المذكور آنفاً والبلجه (Belice) والصالصو (Salso) والجيله (Gela) والأكته (Acata) اكثر اهمية . وملك الانهار في صقلية السميتو (Simeto) الذي يصبّ مياهه في البحر اليوني، متذكرًا اياماً سعيدة قضاها في العهد القديم ، عهد الميتولوجية ، ينظر الى عرائس المياه جالسات ولا لباس عليهنّ على ضفافه ، يستمعن الى تغزّل شبّان الهيّين تنفّرهن منهم ارجلهم التيسية والقرينات البارزة على جباههم . ونهر آخر تغنّى به الشعراء اليونانيون


PALERMO
MESSINA
Trapani
Alcamo
CATANIA
Caltanissetta
Canicatti
Agrigento
Caltagirone
Siracusa
Comiso
Vittoria
Ragusa
Modica
Centri 25.000 abitanti
Centri 50.000 - 100.000 »
CENTRI piu di 100.000 »
0 10 50
chilometri

● خريطة صقلية

(Michele Amari) صاحب «تاريخ المسلمين في صقلية» ، وكارلو الفونسو نالينو (Carlo Alfonso Nallino) مصلح ومتمم كتابه[1].

كانت صقلية في العهد القديم هدفاً للاستعمار الفنيقي وللاستعمار اليوناني معاً . لا شك ان الفنيقيين كانوا يقصدونها بمراكبهم واردين من صيدا وصور قبل تأسيسهم لقرطاجة ، ولا يستبعد ان يكونوا قد اقاموا فيها محطات تجارية قبل ذلك العهد ، ولكن الاستعمار الفنيقي في الحقبة التي يتيسر لنا متابعتها لوفور الشهادات التاريخية لدينا يرتأي لنا واردًا من سواحل افريقية ، اذ نجد الفنيقيين مستقرّين في الساحل الغربي فقط ، اي في الساحل الاقرب الى قرطاجة . فكانوا لا يملكون هناك الا ثلاثة مراكز . وهي موتسية (Mozia) ، مدينة كانت مبنية على جزيرة تقارب الشاطئ مثلما كانت الحالة في صور وصيدا وارواد ؛ وبالرمو (Palermo)، وسولنتي (Solunte) القائمة على القرن الغربي من خليج بالرمو . بيد ان المستعمرات اليونانية ، وهي اوفر عددًا بكثير ، كانت مصطفة على القسم الشرقي من الشاطئ الشمالي، مثل اميرا (Imera) ومسينا (Messina) . وعلى القسم الجنوبي من الشاطئ الشرقي الاقل قرباً الى افريقية ، مثل جيلا (Gela) وكركنته ، وعلى طول الساحل الشرقي ، حيث كانت اهمّ مستعمرات اليونان سيراكوزا (Siracusa) . وظلّ القرطاجيون قرنين ونصف لا يوسعون نطاق احتلالهم . نعم وقفوا قرنين ونصفاً موقفاً يشابه الموقف الذي بقي عليه ثلاثين سنة العرب الذين نزلوا في مازرة (مزارة) في سنة ثمانماية وسبع وعشرين ،ولم يحتلوا احتلالًا ثابتاً طوال ثلاثين سنة الا الزاوية الممتدّة من مزارة الى بالرمو ، وكسروا رؤوسهم كلما أرادوا نطاح سيراكوزا . وكانت سيراكوزا كابوس الفنيقيين ايضاً . فلما بلغت هذه المدينة اوج قوتها بحيث اصبحت مالكة ، بالشركة مع حليفتها الغربية كركنته ، لثلاثة اخماس الجزيرة (والخمس الرابع في ايدي اهالي البلاد الصقليين ، والخمس الباقي ليس كلّه القرطاجيين ، بل جزء منه في ايادي بعض الجمهوريات اليونانية الصغيرة) ، وجد المستعمرون القرطاجيون انفسهم مخنوقين،واضطروا الى المرور من سياسة الاكتفاء ببعض القواعد التجارية الى سياسة الاحتلال العسكري الواسع النطاق ، والى فعل ما فعله العرب مرارًا وتكرارًا في اثناء فتحهم للجزيرة من استدعاء قوات جديدة من افريقية . فجاءهم اسطول مشحون بالجنود من قرطاجة وحاصروا مدينة اميرا اليونانية . ولكن جيلون ، صاحب سيراكوزا ، بدّدهم بحرًا

(١) Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2me édition, avec notes de Carlo Alfonso Nallino, Catania, 1933—1939.

وبراً في سنة ٤٨٠ قبل المسيح . تغنّى الشاعر اليوناني بنداروس (Pindaros) بهـذا الانتصار وعدّه المؤرخون فاتحة تغلب الغرب على الشرق في العهد القديم. ولكن الستار لم ينزل الّا على الفصل الاوّل. فاستؤنف الكفاح بعد حرب سيراكوزا واتينا ودام مئتي سنة وافضى الى حالة توازن تناصف فيها قرطاجة واليونان ملـك الجزيرة بان كان نصيب الاولـين الشطر الشرقي . وهذه كانت حالة صقلية يوم ظهر في الميدان خصم جديد وهو الشعب الروماني وابادت الحروب البونية (guerres puniques) شوكة القرطاجيين في صقليـة وافريقية معاً . ولكن تجاور العنصرين اليوناني والفنيقي في ارض صقلية قروناً عديدة لم يذهب سدى ، اذ لم ينقطع الا وقد كانت الحضارتان قد تداخلتا : كانت حضارة اليونان وعوائدهم واطوارهم قد انتشرت بين الطبقات البُونية العالية ، وكان الفن اليوناني قد اثر في الفن الفنيقي . وكانت النقود القرطاجية المضروبة في صقلية تحمل كتابات وصوراً يونانية بجانب الحروف والنقوش البُونية . وكانت من الجهة الاخرى السيراكوزيات يندبن ادونيس قائلات « عُد الينا . . . » وكان اليونان والرومان يتعلمون الجغرافية من رحلتي حَنون وهملكون . ومما يجدر ذكره ان مجلس شيوخ الرومان امر بنقل الكتب الثمانية والعشرين التي الفهـا القرطاجي ماغون (Macon) في الفلاحة الى اللاتينية . ودام تأثير تلك الكتب في الفلاحة الغربية عدة قرون . بعين الصورة ساعد فيما بعد وجود العرب في صقلية نمو الزراعة وكلف راجار النرماني ، ملك صقلية ، الجغرافي العربي الادريسي بتأليف كتاب في تخطيط البلدان، وامر بنقل عدة كتب علمية من العربية .

بعد وقوعها تحت حكم الرومان، مُنِحَتْ صقلية الوطنية الرومانية التامة على يد انطونيوس، وسرعان ما اصبحت لاتينية لغةً وثقافةً . وكان تاريخها، عدة قرون، جزءاً متمماً لتاريخ ايطالية والامبراطورية لا يهمنا في ذاته .

ثم ، لما ابتدأت غزوات البرابرة واستقرّ الڤندال (Vandales) في شمال افريقية ، احتل هذا القوم الالماني زاوية صقلية الغربية طبقاً لما فعله القرطاجيون ، فإن التاريخ يميل الى اعادة نفسه . ولكن قيصر الشرق يوستينيانوس (Justinien) لم يلبث ان طرد منها الڤندال وغيرهم من البرابرة ، وصارت صقلية من ذلك الحين مقاطعة من مقاطعات الامبراطور البيزنطية تحت ادارة والٍ كان يلقّب بالاستراتيغوس (Strategós) او البطريق ، ودخلت ثانية — خصوصاً طبقاتها العالية — في نطاق الثقافة اليونانية ، وان حافظت عامتها على لغتها اللاتينية. والحقت من جهة نظام الكنيسة ببطريركية اسطنبول بعد ان كانت تابعة لكرسي روما ، ولكن

ذلك لم يغير عقائدها ، لان انفصال كنيسة بيزنطة عن كنيسة روما لم يكن قد تمّ بعد في ذلك الاوان . وبعد الحكم العربي والفتح النرماني عادت صقلية لاتينية الطاعة والطقس ، وان بقي فيها عدد من الروم الكاثوليك الى يومنا هذا ، في السهل المعروف بسهل الاغريق.

لم يجد الصقليون في الحكم البيزنطي دواعي الراحة والرضى لان الضرائب كانت فادحة والتجنيد الاجباري كان ينزعهم من اوطانهم وينقلهم الى بلدان بعيدة لأجل القتال في حروب لا يفهمون اسبابها ، ولان الفلاحين ، وان كانوا احرارًا اسمًا ، كانوا ارقًا. حكماً حيث لا تجوز لهم مبارحة الارض التي يشتغلون فيها وان تبدل مالكها . وهذا الاستياء مما يعلّل ضعف دفاع الاهالي وقتما ظهر المسلمون .

الهجومات العربية الاولى

كانت صقلية من حيث موقعها الجغرافي معرضة لهجومات المسلمين من جهتين : من جهة لبنان ومن جهة افريقية. فهاجمها معاوية اولًا بمراكب ارسلها اليها من سواحل لبنان، وهو حينئذٍ والي الشام في زمن الخليفة عثمان ، وكرّر عليها الغارة من افريقية بعد ان تبوأ هو عرش الخلافة ، اما الحملة الاولى التي وقعت نحو السنة ٦٥٠ ، فلا يوجد لها ذكر الا في الكتاب البابوي (Liber Pontificalis) ورسائل البابا مارتين ، ولم يقصد بها الا النهب والسبي . واما الحملة الثانية فانها وقعت في سنة ٦٧٠ تقريباً ، او في سنة ٦٧٣ على قول البيروني ، تحت قيادة عبدالله بن قيس بن مخلد الفزاري ، احد قواد معاوية بن حُدَيج عاهل افريقية . اقتصر هذا القائد ايضاً على النهب والسلب ثم رجع الى افريقية . ومما يذكر في شأنه ان الفزاري اغتنم عددًا وافرًا من الاصنام ، اي من تماثيل العذراء والقديسين المرصعة بالجواهر ، وارسلها الى الخليفة معاوية . فأمر هذا ببيعها في اسواق الهند ، حيث صارت اصناماً حقيقية . ومما يستلفت الانظار وايضاً ما يحكيه المؤرخ تيوفانيس (Theophanes) ان بعض الاسرى الصقليين ارسلوا الى دمشق واعجبتهم السكنى هناك . وهذا الخبر يلائم ما يفيده ياقوت في كتابه مراصد الاطلاع حيث يقول ان دمشق في قربها قرية اسمها الصقليات، ويفصل الكاتب الصقلي ابو حفص ابن خلف عمر هذا الخبر بقوله ان قرية الصقليات في الغوطة . هذا قول آماري (Amari) ، على ان الاستاذ نالينو (Nallino) حقق المخطوطات ووجد ان اسم القرية فيها صقليان على النكرة والتثنية . ويجوز ايضاً ، على رأيٍ ، أن يكون الالف والنون في صقليان علامتي النسبة في اللغة الايطالية ، التي تقول (Siciliano) بمعنى الصقلي .

وكانت كلما رسخت اقدام المسلمين في افريقية ازدادت الجزيرة تعرضاً لغاراتهم ، خصوصاً

وانها كانت قاعدة للبيزنطيين المحاولين لاسترجاع افريقية ، وملجأ للنصارى الفارين من وجه المغيرين . ولهذا السبب حصن حسن بن نعمان وموسى بن نصير مرفأ تونس ، متخذين اياه موثباً ينقضّان منه على صقلية عند اول فرصة سانحة . وفي سنة ٧٠٤ نظم موسى بن نصير غزوًا سُمّي بغزو الاشراف ، اسفر عن اسر الف نفر، وعن غنائم بيعت في السوق وربح منها كل واحد من الجنود مائة دينار ذهباً. واتبعه بغزو ثان تمكن فيه المسلمون من دخول سيراكوزا ولكنهم اكتفوا بالنهب ولم يقيموا في صقلية . وهكذا كان شأن مغـاز اخرى عديدة . وكثيرًا ما كانت العواصف تغرق السفائن المشحونة بالغنائم او تحرقها النار الاغريقية .

كادت النتائج ان تكون اكبر في سنة ٧٤٠ ، اذ حاصر حبيب بن ابي عبيدة مدينـة سيراكوزا ، على رأس جيش جرار، والجأ سكانها الى الافتداء بمال وافر . وكان يتهيأ للتوغل في الجزيرة ، ولكن ثورة البرابرة في افريقية اضطرته الى الرجوع الى تونس فورًا . منذ ذلك الحين رجع المسلمون عن فكرة الاستيلاء على صقلية، بل ابرم امراء المغرب وخصوصاً الاغلبيون معاهدات سلم وتجارة مع ولاة صقلية البيزنطيين . هكذا عقد مؤسس دولة الاغالبة ابراهيم ابن اغلب هدنة مدتها عشر سنوات . ولكنه لم يراعها ولم يراعها ابنه وخلفه ابو العباس ، الا انه عانى انكسارًا بحريًا هائلًا على يـد الاسطول البيزنطي ، واضطر الى تجديد العهود لمدة ١٠ سنوات اخرى ، فالتزم الطرفان بردّ الاسراء وبعدم عرقلة حركات التجار بين صقلية وافريقية في انشائها . ولكن خلف ابي العباس ، وهو اخوه زيادة الله بن عبدالله ، نكث هذه العهود بعد اربع سنوات او خمس بان ارسل الى الجزيرة جيشاً ، يقوده ابن عمه محمد بن عبدالله، امعن فيها نهباً واسرًا .

استيلاء الاغالبة على الجزيرة

الآن كانت الاجاصة يانعة ، كما يقول الافرنج. فاذا كان زيادة الله، وهو مشغول في افريقية بثورة كانت قد انتشبت بين البرابرة ، يتردد بعض التردد ازاء فكرة الهجوم على صقلية ، فقد زال ارتيابه لما جاء الى افريقية احد اعاظم قواد القوات الصقلية وشجعه على اجتناء ثمرة وصفها دانية . كان اسم هذا القائد اوفيميوس (Euphemios) ، وكان مقدماً من بطارقة القيصر على مـا يقوله المؤرخون العرب او ترمارخا (TOYPMAPXHC) يعني «فريقاً» (قائد فرقة) على ما تقوله المراجع الايطالية والبيزنطية . وكانت قد وقعت عداوة بينه وبين والي صقلية العام لاسباب شخصية ، لان الوالي العام قد خطف منه مخطوبته ، على ما يقول احد المراجع الايطالية ، او لان اوفيميوس كان قد خطف راهبة من ديرها، وكان الوالي العام جازاه بالعزل ، على ما يقول مرجع آخر .

فاما آماري فانه يفتكر ان هذه الجريمة انما افترتها عليه السلطة البيزنطية العليا توسُّلا لإبعاد قائد اهلي كثير المطامح لا تأتمنه. اما المراجع العربية اي النويري وابن الأثير وابن خلدون، فانها لا تروي لنا الّا ان الامبراطور كان قد امر بطريق الجزيرة بعزله وعقابه اثر جناية كان ارتكبها . مهما كان من امره ، فان اوفيميوس تمرّد مع قواد آخرين (ولم تكن هذه اول ثورات الصقليين على البيزنطيين) ، ولكنه انهزم فخذله بعض انصاره . ففرّ الى القيروان، وقدم نفسه لزيادة الله دليلًا وعوناً على فتح الجزيرة .

كان لزيادة الله مستشار مسموع الكلمة محبوب اليه والى العامة ، هو القاضي ابو عبدالله اسد بن الفرات بن سنان . ولد هذا القاضي في حرّان ، وكان ابوه خراسانيًّا من افراد الجند الخراساني الذي ارسله الخليفة العباسي المنصور الى افريقية بعد قتل ابي مسلم وكان ابوه اخذه معه الى القيروان وهو ابن سنتين . قرأ اسد القرآن وتلقى مبادئ العلوم الدينية في تونس ؛ ثم سار الى العراق وكتب عن اصحاب ابي حنيفة اولًا ، ثم انتقل الى مذهب مالك ، وكتب عن ابن القاسم في سائر ابواب الفقه ، وجاء في سنة ٧٩٧ الى القيروان بكتابه الذي سمي « الاسدية » نسبة اليه . وفتح مدرسة ونال شهرة عظيمة حتى عيّن قاضياً ، واصبح زيادة الله يستشيره في شؤون الملك كلها .

اقترح اوفيميوس على زيادة الله ان يزحف الى صقلية باسطوله وجيوشه . ووعده بمعاونته بانصاره الصقليين وبالسُّفُن التي معه ، وبخبرته ببلاد كان يعرف كل مجاهلها وغوراتها . واذا تم الامر للمسلمين بالنصر ، كما كان امله بل يقينه ، فليكن زيادة الله في الجزيرة بمثابة الامبراطور البيزنطي ، وليكن اوفيميوس نائبه . ازاء هذه الاقتراحات عقد الامير مجلسه ، الذي كان يسمى ، على اصطلاح البرابرة ، « جماعة » ، وشاوره في الامر . وكان الحاضرون في الاول متردّدين . فمنهم من يذكر حرمة العهود ، ومنهم من يخطر الامير بمناعة الجزيرة وقوّة الاسطول البيزنطي ، ومنهم من ينبهه الى ان الثورة في افريقية لم تخمد بعد ، فكيف يقتحم الامير حرباً في الخارج وهو محاط بها في الداخل ؟

ولكن القاضي الطاعن في السنّ ادرك ان انتصارًا في الخارج خير واسطة لتوطيد مركز الامير في الداخل ، وفند حجج المتمسكين بحرمة العهود باتهامه الصقليين بعدم ردّ بعض الاسرى المسلمين خلافاً للشروط (وان كان سبب عدم ردّهم انهم كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي فلا يُعدُّون ، اذًا ، من اهل الاسلام) . وبيّن لهم ضعف دفاع الجزيرة ، وختم كلامه بالآية القرآنية التي تقول :

« فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون ، الله معكم ولن يتركم » (٤٧ [محمد] ٣٧).

كان هذا القول فصل الخطاب فقرّ القرار على مهاجمة صقلية . وطلب الشيخ شرف التقلّد بقيادة المجاهدين، خوفاً منه ان يكتفي غيره بكثرة الغنائم والسبايا فتبقى هذه الحرب عقيمة مثل الحروب السابقة . فاجابه زيادة الله الى طلبه نزولًا على رغبة الجمهور .

اقلعت قوات زيادة الله من سوسة، وهي مؤلفة من ٧٠٠ فارس وعشرة الاف راجل على مئة سفينة . اقلعت في ١٤ حزيران سنة ٨٢٧ ونزلت في ١٧ حزيران في مزارة على الساحل الغربي حيث كان لاوفيميوس انصار . فزعت قوات المسيحيين من بالرمو وعليهم قائد يدعى بلاطة ، ودار القتال في ميدان بين بالرمو سمي به فيما بعد . وكان الصقليون يفوقون المسلمين عدداً وعدة . ولكن النصر كان للعرب فاتجه اسد بن الفرات الى سيراكوزا ووصل اليها . ونزل في مقاطع الحجارة التي حول المدينة منذ عهد اليونان . وحاصرها مدة عشرة اشهر وكان على وشك الجائها الى التسليم لما انتشر الطاعون في جيشه وذهب بحياة كثيرين من جنوده وبحياته ايضاً . فكادت هذه الحرب تنتهي بمثل ما كانت انتهت به الحروب السابقة . اذ يئس المسلمون ، وقرروا ان يعودوا الى افريقية . ولولا ان الاسطول البيزنطي اغرق سفنهم وقطع عنهم طرق الرجوع ، لكانوا غادروا الجزيرة. حينئذٍ فرّ المسلمون براً ، وتسلّوا بفتح قلعة مينيو (Mineo) على مسافة مرحلة من سيراكوزا . ثم توغلوا في الجبال وشدّدوا الحصار على قصر يانيّ ، باغراء اوفيميوس الذي كان قد اكتسى حلّة الملك . ولكن الخائن مات مخوناً ، اذ دعاه سكان المدينة الى مقابلة لأجل الاتفاق على شروط التسليم ، فذهب الى لقاء وفدهم في حرس ضئيل ، واذا في الوفد اخوان كانا في الماضي من اصدقائه فرحبا به وعانقاه ، وفجأة امسك احد المعانقين عنقه وضربه الآخر بخنجره. هكذا مات اوفيميوس وكان قد علّل نفسه بدخول المدينة في موكب فاخر ، والحال انه لم يدخلها الّا رأسه المقطوع في موكب يفتخر بقتل خائن الوطن . وعبثاً استمرّ المسلمون على حصار القصر الى ان جاء جيش بيزنطي وكسرهم وألجأهم الى الانسحاب .

كانت سنتان قد مرّتا على نزولهم في مزارة وهم لا يملكون من الجزيرة الا هذا المرفأ وحصن مينيو (Mineo). ولكن ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود جاءتهم بالنجدة من افريقية اصلحت احوالهم فاستأنفوا الزحف وتمكنوا من فتح بالرمو في سنة ٨٣١ .

هكذا رسخت اخيراً اقدامهم ، بعد جهاد عنيف دام اربع سنوات ، في زاوية الجزيرة الشمالية الغربية، يعني في المنطقة التي كان قد انزوى فيها الفنيقيون. واما قلب الجزيرة بما فيه قصر

ياني المنيع ، والساحل الشرقي باسره ، والقسم الجنوبي من الساحل الغربي ، فهذه الجهات كلها بقيت في ايدي البيزنطيين . وبدأ حينئذ الفصل الثاني من النضال ، ولكنه كان اطول من الاول بكثير .

ان الفرق بين الفتح الاندلسي وفتح صقلية، هو ان العرب لم يجدوا امامهم في اسبانية الا مُلكاً محلياً لا يعتمد الا قوى نفسه وهي ضعيفة جداً،بيد انه واجهتهم في صقلية امبراطورية يمدّها الشرق والغرب بقواهما وتسود اساطيلها البحار. فكان ينبغي للمسلمين، اذا ارادوا طرد البيزنطيين من الجزيرة ، ان يقتحموا ، الواحد بعد الواحد ، حصونهم البرّية المنيعة طبعاً وصنعاً، وان ينزعوا منهم الواحدة تلو الواحدة ، قواعدهم البحرية ، وليس قواعدهم في صقلية فحسب، بل قواعدهم التي يملكونها حواليها .

٢

من الفتح الاسلامي الى الفتح النرماني

المسلمون في صقلية قلنا في محاضرتنا الاولى ان فتح بالرمو لم يسدل الستار على رواية فتح جزيرة صقلية ، بل انما اسدله على الفصل الاوّل ، تاركاً المسلمين منزوين في اقاصي صقلية الشمالية الغربية،وباقي الجزيرة في يد البيزنطيين ، كما كان في قبضة اليونان في العهد اليوني . واضفنا الى ذلك ان طرد البيزنطيين من الجزيرة كلها موقوف على ابادة قواعدهم البحرية القريبة من الجزيرة مثل رجو (Reggio) في كلابريا وباري (Bari) ، فضلاً عن ابادة قواعدهم البرية والبحرية الواقعة في الجزيرة نفسها. لذلك لم يكن استيلاء العرب على بالرمو الا فاتحة سير بطيء ، كثير المراحل ، والوقفات ، والتقهقرات ، وكثير الالتواء ، وغير مكتف بصقلية ساحةً ، بل متفرّع الى شتى الأصواب .

فاول ما فعله العرب بعد سقوط بالرمو انهم التفتوا الى شبه الجزيرة الايطالية وشنّوا عليها الغارات قصداً لاضعاف العدو والهائه عن صقلية ، وخطبوا ودّ جميع خصومه الذين يزاحمونه هناك مثل اللنغبارد (Longobardes) ، الفرنك (Francs) ، والجمهوريات التي كانت تطمح الى التحرر من وصاية بيزنطية.من ذلك انهم عقدوا مع جمهورية نابولي معاهدة دامت مرعية بين الطرفين مدة خمسين سنة .

وهذه هي مراحل فتوحاتهم في الجزيرة : في سنة ٨٤٢ او ٨٤٣ اي في السنة الخامسة عشرة بعد نزولهم في مزارة ، فتحوا مسينا (Messina) وهي قاعدة بحرية مهمة جداً لاشرافها على البوغاز . وفي سنة ٨٥٩ ، اي في السنة الواحدة والثلاثين بعد مبدأ الفتح ، تمكنوا من الاستيلاء على قصر ياني ، حصن البيزنطيين المتين في الجبال . ولكن سيراكوزا كانت لا

تزال واقفة امامهم ، ودونها خرط القتاد . ومـا دامت سيراكوزا في قبضة البيزنطيين ، تلجئ بمرفئها المنيع اساطيلهم ، وتمكنهم من ارسال جنودهم ، المتقاطرين من كل نواحي الامبراطورية العظيمة ، الى كل اطراف الجزيرة ، فكلّ الانتصارات ، كل الفتوح ، مهدّدة بالعقم . ودليل عـلى ذلك قصر ياني الذي كان العرب قد اتعبوا انفسهم في فتحـه طول نيف وثلاثين سنة ، خرج من ايديهم بعد خمس سنين . فوهن المسلمون مرة اخرى ، وتوقفوا، ولم يعودوا الى نشاطهم الّا بعد ان اعتلى العرش في افريقية رجـل قوي العزيمة ، شديد الشكيمة ، وهو ابراهيم بن احمد الأغلبيّ ، الذي لقّبه رعاياه بالفاسق لجوره وقساوته .

ابراهيم بن احمد الاغلبي

غصب ابراهيم الملك من ابن اخيه ، وليّ العهد ، مستفيدًا من صغر سنه. وايّده بالقتل والتعذيب ، ملتذًّا بسفك الدماء ، وبمشاهدة اوجاع المعذّبين . وكان لا يتسلّى بشيء مثلما كان يتسلّى باخراج القلوب من صدور ضحاياه والنظر الى خفقاتها . ومن فظائعه الجديرة بهيرودس انه ذبح جميع غلمانه ، لان منجّماً تكهّن له بانه سيموت مقتولًا علي يد صغير ، وانه امر بان يكون زنّار اليهود رقعـة بيضاء عليها صورة قرد ، وزنار النصارى رقعة بيضاء عليها صورة خنزير ، وزجّ بيده رمحه في قلوب خمسمائة اسير من قبيلة نفوسة ، ودفن احد كتّابه حيًّا ، وامات كثيرات من زوجاته وسرياته شنقاً وصلباً ووأدًا ، الى ان وصلت شكاوى المظلومين ، من ابناء افريقية وصقلية ، الى الخليفة ، فعزله . حينئذٍ اراد ابراهيم ان يزكّي نفسه بالجهاد وبفوز باهر على الكفّار ، فسافر الى صقلية عاقد النية على فتح سيراكوزا. وهكذا ضرب المسلمون الحصار على معقل البيزنطيين الاخير ثانية ، وكانت قد مرّت خمسون سنة من تاريخ موت اسد ابن الفرات ازاء اسوار هذه المدينة . اما هذه المرة ، فلم يعد المسلمون حفنة من الرجال ، بل كانوا جيشاً عرمرماً ولهم مجانيق لم يكن قد رؤي حينئذٍ مثلها في بعد مرماها وضخم الحجارة التي تقذفها . وكان يؤيدهم من جهة البحر اسطول رائع كان قد بدّد سفن البيزنطيين .

سقوط سيراكوزا — المردة

استمرّت ممانعة اهالي المدينـة والحامية البيزنطية تسعة اشهر رغماً عن فرط عدد الاعداء وقوّة آلاتهم الحربية . وجدير بالذكر انه كان من جملة المدافعين ومن اشدّهم بأساً وصبراً عدد وافر من المردة ، اي الجراجمة الذين تعرفونهم حق المعرفة ، يا ايها المستمعون اللبنانيون ، لان بعضكم من انسالهم . ولكن الجوع والامراض فتكت بأولئك البواسل. وفي صبيحة اليوم الواحد والعشرين من شهر ايار من سنة ٨٧٨ امطرت المجانيق عـلى المدينة اضخم حجارتها ، فانهدم البرج الاكبر ، وانثلم

السور، ودخل المسلمون، وانتهى الامر بجزرة وتخريب قلما شوهد مثلهما. سُبيَ من لم يُذبح، وحُرق ما لم يهدم، ونُهب ما لم يعدم، ولم ينسحب الفاتحون الّا وقد اصبحت المدينة العامرة، ملكة البحر اليوني، انقاضاً على انقاض.

سقوط تَوْرمينة

مرّت ١٤ سنة اخرى، ثم وضع ابراهيم بن احمد يده على مدينة تَوْرمينة (Taormina)، ومات في نفس تلك السنة اثناء محاصرته لكوزنتسا (Cosenza) في قارة ايطالية.

فلنجعل هذا التاريخ، اي سنة ٩٠٣، ختاماً لفصل فتح صقلية الثاني، لثلاثة اسباب وهي الآتية: ١ — تم بذلك الانتصار جلاء البيزنطيين عن الجزيرة. ٢ — توسّعت في تلك السنة في المغرب ثورة قبيلة كتامة البربرية التي كانت فاتحة انهيار دولة الاغالبة وطلوع نجم دولة الفواطم. ٣ — ان التهاء الاغالبة عن صقلية من جراء تلك الثورة وابتعاد التهديد البيزنطي، بعد اخلائهم للجزيرة، ساعد الصقليين على التدرّج الى حكم ذاتيّ قارب احياناً الاستقلال.

وقد سمّيت تلك السنة سنة الشهب، لكثرة ماروئي في الجوّ من الظواهر الضوئية، فعسى ان تنير هذه الشهب باقي طريقنا، فنرى مشاهد سلام وشواهد عمران بعد كل هذه الحروب الدامية، اذ قد تكون الدماء مخصبة، وقد تنبت الاعشاب من وسط الاخربة.

بوادئ الحكم الذاتي

كانت حركة التحرّر قد بدأت في صقلية منذ سنين آخذةً شكل ثورة سبّبها الجبار ابراهيم بن احمد الاغلبي باعماله القاسية، ولكنه توفّق الى اخمادها بسهولة مستفيدا من النزاع القائم بين العرب والبرابرة. ثم لما جاء الى صقلية بذاته لاعلان الجهاد على المسيحيين، صرف عن نفسه وعن اسرته نقمتهم، بالفوز العظيم الذي ناله في تَوْرمينا وبموته شهيداً.

خلف ابراهيم ولده عبدالله، الذي انسى الناس جفاء ابيه بما كان موصوفاً به من مكارم الاخلاق. ولكن ابنه زيادة الله، الذي تركه نائباً عنه في صقلية ردّ حكم الاغالبة ممقوتاً بخلاعته وفسقه. حينئذٍ عزله الامير ودعاه الى القيروان في سنة ٩٠٣. فاغتال ذلك اللئيم اباه بان امر اثنين من خصيانه بقتله وهو نائم بينما هو يستريح من الحمام. وفتح بهذه الجناية ملكاً كان سلسلة متواصلة الحلقات من الفواحش. جلس على العرش ست سنين قضاها محفوفاً بالسيّافين والجلّادين والعواهر والفجّار. واجبر في الاخير الى الفرار في سنة ٩٠٩.

وفي سنة ٩١٠ انقرض ملك الاغالبة، واسّس عبدالله المهدي في بلاد تونس دولة جديدة وعاصمة جديدة سمّاها المهدية.

بمجرّد ما فرّ زيادة الله اختــار اشراف صقلية رئيساً للجزيرة في شخص علي بن محمد ابن علي الفوّاري (نسبة الى فوارة من ضياع بالرمو)، وطلبوا من المهدي ان يعترف بـه ويخلع عليه . وكان هذا الانتخاب (وكان ولاة صقلية في السابق يعيّنهم الامراء الاغلبيون انفسهم من بين افراد اسرتهم عادة) مظهرًا من مظاهر ميل صقلية الى الحكم الذاتي . وقد أقرّه المهدي وخلع عـلى الفوّاري .

غير انه لم يلبث ان استبدل به والياً جديدًا عيّنه بنفسه واسمه احمد بن علي بن كُلَيب الملقب بابن ابي خنزير . لم يكن هذا اللقب داعياً للاستبشار به ، وبالفعل ارتكـب ابن ابي خنزير عدّة «خنزرات» . واقام حواشيه مقــام الصقليين في المناصب الادارية وتهوّر في طرح احكام المذهب السنّي المالكي الجارية في صقلية ، آخـذًا باحكام المذهب الشيعي ، وحاول ان يزرع الفتنة بين الصقليين . ولكن مثل « فَرِّق تَسُدْ» لم ينفعه هـذه المرّة ؛ فثار الشعب وحاصره في بلاطه واجبره على الخروج لا من الباب بل من الشباك مكسورة احدى رجليه ، وحبسه . وارسل الى المهدي شاكياً ظلمه وطالباً عزله . فرأى المهدي من الحكمة ارضاء الشعب الصقلي . فارسل اليه والياً آخر اسمه البَلَوي واستدعى ابن ابي الخنزير الى القيروان لجبر رجله المكسورة ، ما دام عاجزًا عن جبر خواطر الرعايا . ولكن الصقليين لم يرضوا اولًا بالبَلَوي فطردوه من بالرمو في سنة ٩١٣ وطردوا حاكم كركنته الفاطمي ايضاً ، وقتلوا صاحب الخُمس اي مدير المال لاستيائهم من فداحة الضرائب .

ابن قرهب

فبعد ان فكوا انفسهم ، بهذه الصورة ، من كل السلطات الافريقية ، اجمعوا كافة ، اشرافاً وعوامّ ، وعرباً وبرابرة ، على المناداة باحمد بن زيادة الله ابن قرهب اميرًا . وكان ابن قرهب هذا رجـلًا مثرياً نبيل المحتد ، كريم الاخلاق ، محباً لوطنه . صمّم ابن قوهب على اعطاء صقلية نظاماً حرًا واختار لبلوغ هـذا المأرب اسهل طريقة موجودة ، وهي انه وضع نفسه تحت رعاية خليفة بغـداد وطلب منه التفويض علماً منه بان خلفاء بغداد وضعفهم سيمنعانهم من اجراء سلطتهم رأساً في الجزيرة . فوافقه الصقليون طرًا على رأيه . فخطب للخليفة العبّاسي المقتدر بالله فارسل هذا اليه الخلعة السوداء والراية السوداء . وفي بدء الامر كانت مساعي ابن قرهب مقرونة بالنجاح ، اذ توفق الى حرق سفن الفواطم الراسية في لمطة في قرب المهدية ، والى اسر عدوّه الشخصي ابن ابي خنزير هنالك وقتله ، والى تدمير مدينــة سفاقص ، والى مهادنة البيزنطيين بشروط مفيدة جدًّا ، منها ان يدفعوا له سنوياً مبلغاً من المال مقابل كفه عن

محاربتهم . ولكن النجاح فارق جانبه لما اراد الالتفات الى الشؤون الداخلية وكبح جماح الاشراف . فخذله هؤلاء وخذلته معهم العامة ، المتعوّدة اتباع رؤسائها ، فثار عليه الجميع واسروه وارسلوه الى المهدي. فأمر الفاطمي بجلده وقطع يديه ورجليه وصلبه في مقتل ابن ابي خنزير في لمطة. وهكذا فشل اوّل جهد جدّي قامت به صقلية لكسب الاستقلال. ولكن هل يجوز لنا ان نسمي هذه الحركة حركة استقلالية ؟ هل يحلّ لنا ان نستعمل لفظ « الاستقلال » المقدّس في هذه الحادثة ؟ استعمله آماري ، صاحب تاريخ المسلمين في صقلية ، لانه ألّف كتابه في باريس وهو منفي هنالك على اثر اشتراكه في ثورة الصقليين التحررية ، وكان يميل الى تفرّس بوادي الفكرة الاستقلالية الخالجة في صدره في جميع الحوادث المتعلقة بتاريخ جزيرته .

الطائفة الاسلامية في صقلية

ولكننا ان نظرنا الى حقيقة الامور لا نرى في صقلية في زمان ابن قرهب ادنى امارة لشعور وطني حقيقي . فلوجود هذا الشعور ، كان ينبغي لمسلمي صقلية ان يروا انفسهم صقليين اولًا ثم عرباً او برابرة ، والحال ان العرب والبرابرة كانت تفصل بينهم هوّة عميقة لم يلقوا عليها جسرًا الّا للتخلّص من اوامر أمير بعيد ، وان العرب انفسهم كانوا منقسمين الى عدنانيين وقحطانيين . وكان ينبغي ايضاً للاشراف والعوام ان يعتبروا انفسهم اخوة من حيث هم ابناء ارض واحدة ، بيد ان الاولين كانوا لا يرغبون في الانفصال عن الامارة الافريقية الّا ليسوغ لهم ضيم العامة. وكان يقتضي قبل كل شيء ان يكون المسلمون والمسيحيون معاً يحبون صقلية حبّاً يحملهم على التجرّد من احقادهم الدينية احتراماً لامومتها ، وبعكس ذلك بدأ ابن قرهب حكمه بغارة شنها على النصارى في كلابريا واتبعها بغارة اخرى شنها عليهم في صقلية نفسها حيث حاصر مدينة تَوُرمينة التي كانوا بنوها من جديد . اضف الى ذلك ان حركة ابن قرهب اصطبغت بصبغة مذهبية ، من حيث انها كانت ضد الشيعة ، فلوحة التفرّق السائد في صقلية كاملة امام عينيك . اذ لم تكن حركته حركة وطنية ، بل كانت عصياناً محضاً بواعثه البواعث المألوفة التي كانت تملأ العالم الاسلامي تمرّدًا وتفرّقاً ، من التعصّب العقائدي او المذهبي ، الى التظلّم من الحكّام ، الى الطمع في السلطة على انه لا يحقّ لنا ان نعتب على ابن قرهب لذلك، اذ ليس من المعقول ان نطالب شخصاً من اشخاص التاريخ بان يتفوّق زمانه ويشعر مشاعر لا تلدها الا الحقب العتيدة . ان الشعور الوطني لم يكن ولد بعد في القرون الوسطى، ولا فرق في ذلك بين العالم الشرقي والعالم الغربي . نعم كان هناك حبّ لمسقط الرأس ، سنسمع صداه

عند شعراء صقلية المسيحيين والمسلمين، ولكنه لم يكن مؤثراً الى حد خلق تضامن وطني. وكانت هنالك عصبة سلالية، ولكن مفعولها كان محصوراً في ميدان محـدود وكان اخلق بحمل الناس على التفرّق منه على توحيدهم. اما التضامن الديني او المذهبي، فانه والشعور القومي على طرفي نقيض.

مهما كان، فالساعة التي ستحكم صقلية ذاتها بذاتها كانت تتقرّب للعلة المألوفة، وهي ان الحكام كان يتعسّر عليهم اجراء حكمهم من البعد. هذا هو السبب الذي خلق الدول القومية على انقاض الخلافة او الامبراطورية، قامت اولًا اسرة سائدة تناقل افرادها الملك على طريق الوراثة، وكلما تمكّنت هذه الاسر من ابقاء السلطان في ايديها مدّة مديدة، تبلور حواليها الشعور القومي شيئاً فشيئاً، وتقوّى الى حدّ اهّله للبقاء حتى عند تبدّل الاسرة المالكة.

الدولة الكلبية تتابع بعد وفاة ابن قرهب في صقلية ولاة كثيرون، يقودهم اصحاب المهدية بالمقود. واخيراً في سنة ٩٤٨، اناب المنصور بامر الله على صقلية الحسن بن علي الكلبيّ، مكافأة له عـلى الخدمات القيمة التي كان اسداها لسلفه وله في افريقية. وتأسست بهذه التولية دولة الكلبيين الذين كانوا سادة صقلية المطلقين مدة مائة سنة. وكان حكمهم ذاتياً، وقل مستقلًا، فعلًا، لا قانوناً، لانهم لم يخوّلوا رسميًّا سلطاناً اوسع من سلطان الولاة السابقين.

مات الخليفة الفاطمي المنصور سنة ٩٥٣ وعقبــه ولده المعزّ لدين الله. وابرم الخليفة الجديد مع البيزنطيين معاهدة زادت صقلية راحةً وامناً، ثم اخذ يعدّ العدة اللازمة للاستيلاء على مصر ذلك الاستيلاء الذي كانت نتيجته اتجـاه الفواطم نحو الشرق مهملين الغرب، وخروج صقلية، على اثر ذلك، من منطقة مراقبتهم المباشرة. ولنذكر هنا ان فاتح مصر كان صقلياً، وهو جوهر الصقلي المشهور مؤسّس القاهرة ومؤسّس الجامع الازهر، ونقيّد في عداد مناقب صقلية كونها ولدت خالق اكبر جامعة اسلامية في العالم. ولا يخفى على مستمعيّ مدى تبسّط ملك الفواطم في الشرق. فلم يسعهم وهم مشغولون بسياستهم الشرقية، الّا ان يسروا بان توجد لهم في صقلية اسرة يأتمنونها، فلذلك لم يمنعوا افرادها من توارث الحكم.

ازدهرت صقلية تحت حكم الكلبيين كل الازدهار. زارها الرحّالة ابن حوقل وارداً من بغداد في سنة ٩٧٢—٩٧٣ في عهد الامير احمد بن حسن وقال انها تلحق بالاندلس لحسن الحال، ووصف المقدسي صقلية باجل واعمر جزيرة يملكها المسلمون، واثنى الكتبة المعاصرون

على الاميرين جعفر (٩٨٤—٩٨٥) وعبدالله (٩٨٥—٩٨٦) خلفي المذكور بحبها للعلم وجودهما ، وقال ابن العذاري في كتابه « بيان المغرب في اخبار المغرب » ان الشعب تمتع بكل النعم وخصوصاً بالامن وبعدل كان مفقوداً في سائر البلدان ، في ايام خلفها يوسف الذي كان بلاطه كعبة الشعراء والادباء . وكانت صقلية قد اصبحت ملجأ لسكان افريقية الخائفين من بطش الزيريين ، وكانت قد نمت فيها اصناف التجار والصناع واصحاب الاملاك . وتكونت فيها من مجموعها تلك الطبقة الوسطى (bourgeoisie) التي هي صلب الدول القومية .

مع الاسف ، زالت هذه السعادة لما جلس على عرش الامارة الطاغية الاكحل وحمل الصقليين على الثورة بالضرائب الفادحة التي فرضها عليهم . ولم يكن اخوه حسن الصمصام الذي خلفه بعد حرب طويلة تداخل فيها البيزنطيون من جهة ، والزيريون الحاكمون في تونس من جهة اخرى ، خيراً منه ، فعزل في سنة ١٠٥٢ وانقرضت بعزله دولة الكلبيين .

مجيء النرمان وانقراض الحكم العربي

افتتحت الآن في صقلية حقبة تماثل حقبة ملوك الطوائف في اسبانية غير انها لم تدم كثيراً . ذلك انه قام رجل اسمه ابن الثُمنة في آترابني (Trapani) وقيل في كركنته وقصر ياني وقيل في كتانيا في سيراكوزا ، فتغلّب على انداره وعلى مدينة بالرمو ايضاً التي قد صارت جمهورية ، فنودي به اميراً في كل الجزيرة ، الا في كتانيا حيث قاومه صاحبها ابن الحوّاص وبدّد جيوشه . حينئذٍ ذهب ابن الثُمنَة الى كلابريا ودعا النرمان (النرمانديين) .

وهكذا دخل على مسرح صقلية ممثل جديد . كان النرمان ، كما لا يخفى ، قوماً معنى اسمهم رجال الشمال قد جاءوا من اقاصي اوروبة الشمالية واستوطنوا المقاطعة الفرنسية التي سميت نورماندية (Normandie) بعد ان ملأوا فرنسة كلها نهباً ، لان خاصة النرمان كانت القرصنة . فكانوا يمخُرون البحار والانهر العميقة بسفنهم السريعة وينزلون في كل شاطئ يجدونه خالياً من الحماة وينهبون كل ما يقع تحت ايديهم ويحتلون البلاد اذا سنح لهم ذلك . وقد تنصر النرمانيون وتأدّبوا في فرنسة ، واتخذوا اللغة الفرنسية لغتهم ، ولكنهم لم يفقدوا حبهم المغامرة ، خصوصاً وانهم استعاروا من الفرنسيين نظام الاقطاعية مع حقّ البكورية الذي كان يحصر الارث في ايدي الاولاد الاكبر سناً ، مما كان يجبر الاصاغر على المهاجرة طلباً للرزق . واصلح آلة لكسب الرزق ، في رأيهم ، السلاح . لذلك ، في عين الوقت الذي استولى فيه النرمان على انكلترة ، ذهبت عائلة من اشراف النرمان مؤلفة من اخوة عديدين واسمها

هوتڤيل (Hauteville) الى ايطالية الجنوبية ، مصمّمة على طلب الحظّ بكلّ الطرق، بالحلال وبالحرام. وكانت ايطالية الجنوبية حينئذٍ منقسمة الى ٩ دويلات دائمة التعادي : صقلية التابعة للمسلمين، وكلابريا وأبوليا او بوليا التابعتين للبيزنطيين ، وامارتي بنڤنتو (Benevento) وسالرنو (Salerno) اللنغبارديتين، ودوقيات نابولي (Napoli) وغائيتا (Gaeta) وسورنتو (Sorento) . قدم الاخوة النرمانيون خدماتهم المسلحة لهذا تارة ولذلك طوراً . ونالوا بمقابلها اراضي واموالًا . وما لم يُعطوه اخذوه ، وبلغوا في مدّة وجيزة من الشوكة الى ان طردوا من بوليا وكلابريا البيزنطيين ودوّخوا اللنغبارديين واخضعوا لهم الدوقيات . فكان الفضل الاكبر في بوليا لرومبرتو الكسكاردو (Il Guiscardo) الذي تلقّب بالدوق ، وفي كلابريا لاخيه الاصغر روجيرو (Ruggero) ، وبالعربي رجار ، او راجار الذي تلقّب بالكونت. كان راجار هذا قد فرغ من احتلال رجو (Reggio) في كلابريا في سنة ١٠٦٠ وكان يمدّ الى صقلية عيناً طامعة ، اذ قدم اليه ابن الثمنة واستعانه على قرينه ابن الحَواص . بالطبع اعار اقتراحه اذناً صاغية وعبر البوغاز ليلًا واحتلّ مسينا بغتة بمساعدة البخت وكبس حصن رمتا (Remetta) وبدّد جيوش ابن الحَواص وعاد الى كلابريا ، للتحضُّر لوثبة ثانية ، تاركاً لابن الثمنة امر مواصلة الحرب . كل ذلك حصل في سنة ١٠٦١ . على ان نصيب ابن الثمنة كان مثل نصيب اوفيميوس ، اذ دعاه احد اصدقائه القدماء للتفاوض في امر تسليم قرية ، وقتله غيلة . فلما عاد رجار الى صقلية في سنة ١٠٦٣ ، وجد الحالة قد تفاقمت لتداخل الايريين ، أنصار ابن الحواص ، فلم يدوّخ الجزيرة الّا بالمشقّة ، على مثل ما كان وقع للمسلمين قبل قرنين . مرّت عليه تسع سنين قبل ان يفتح بالرمو ، في اوائل سنة ١٠٧٢ ، واربع عشرة سنة اخرى قبل ان ينتزع من ايدي معانده ابن زياد سيراكوزا التي كانت هذه المرة ايضاً آخر من سلم اليد ، باستثناء مدينة نوتو (Noto) التي سقطت في سنة ١٠٩١ . فبهذا تمّ الفتح النرماني وانقرض الحكم العربي . ثم امتدت السيطرة النرمانية حتى جزيرة مالطة .

تمّ الفتح النرماني ولكنْ لم تتمّ ، يا ايها المستمعون ، سلسلة دروسي . لان المسلمين لم يبارحوا الجزيرة بمجرّد زوال سيطرتهم فيها ، بل من غرائب التاريخ ان هذه السيطرة لم تأتِ بثمارها الّا بعد ان تقلّص ظلها ، كما ستسمعون .

٣

صقلية ملتقى حضارتين

من الفتح النرماني الى جلاء المسلمين عن الجزيرة

سياسة رجار الاول الدينية

غادرنا في محاضرتنا السابقة الكونت رجار النرماني مالكاً لصقلية باسرها ولمالطة معاً

فكيف كانت معاملة السيد الجديد ، المجاهـد باسم الصليب ، للمسلمين ؟ الجواب عن هذا السؤال موجود في تواريخ المؤرخين المسيحيين غليام الابولي (Guglielmo di Puglia) ومالاترّا (Malaterra) . فانهما يرويان انّ رجار ، لما فتح بالرمو ، وعد المسلمين بان لا يؤذيهم بشيء وان يكره احداً على تبديـل دينه . وتؤيد قول هذين المسيحيين شهادة العالم الجغرافي الادريسي الذي يقول في كتابه نزهة المشتاق : « ولما صار امرها (اي امر الجزيرة) اليه واستقرّ بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في اهلها واقرهم على اديانهم وشرائعهم وآمنهم في انفسهم واموالهم واهليهم وذراريهم . ثم اقام على ذلك مدّة حياته الى ان وافاه الاجل المحتوم ، وتقضّاه يومه المعلوم » . نعم ، استمرّ الكونت على هذه السياسة طول حياته؛ باذلًا جهده في استمالة المسلمين ، رغبة منه في جعلهم رعـايا مخلصين وانصاراً يستعين بهم في مواجهة رفقائه الغير المريحين للبال ، اي الاشراف النرمانيين اصحاب الاقطاعات ، اذا حاولوا مزاحمته والخروج من طاعته ، كما كانت العادة في اوربة الاقطاعية باسرها ، خصوصاً عنـد النرمان المجبولين على عدم الانقياد .

فنجد في الكتب التاريخية المسيحية ، مثلاً،انه لما ذهب الى ناحية نابولي، في ايطاليا الوسطى لضرب الحصار على مدينة كابوا (Capua) استصحب جيشاً اسلامياً . فجاء الاسقف انسلمو



● طيلسان الملك راجار
(صنع الطراز الصقلي)

فحقًا انّ هذه غاية التسامح الديني ، مقروناً بحكمة تجارية ، اذ كان يهمّ النرمان ان تقبل نقودهم في الاسواق الافريقية .

رجار الثاني

مات رجار في سنة ١١٠١ ، وخلف ولدين صغيرين تحت وصاية امهما ديلايدي ، فمات اكبرهما سنًا . فورث سلطته الثاني ، الذي اسمه رجار . وضمّ رجار الثاني الى صقلية باقي ايطالية الجنوبية من رجّو (Reggio) الى نابولي (Napoli) الى باري (Bari) على اثر انقراض عائلة روبير غويسكار (Robert Guiscard) واصبح بهذه الصورة مالكاً لنصف ايطالية ، كما كان نصف دمه ايطاليًا من جهة امه المولودة في منفرّاتو (Monferrato) من نواحي بيمونتي (Piemonte) . فحقّ له ان يتوّج ملكاً في سنة ١١٣٠ .

استند هذا الملك النرماني الايطالي في سياسته الى المسلمين مثل ابيه واكثر منه . كان له جيش اسلامي يرافقه في كل غزواته. واسّس امبراطورية اسلامية بان استولى على طرابلس الغرب (١١٤٣) ، وبسط نفوذه الى تونس بواسطة اتفاق تجاري ابرمه مع صاحب المهدية، واقرضه منحة لتركيب الديون عليه وجعل جمارك تونس تحت اشراف مأمور من عنده . نعم ، كانت سياسته في ذلك سياسة الاستعمار ، ولكنه كان مستعمرًا في معنى الكلمة الاشتقاقي ، لا مستغلًا . اذ لم يفرق بين رعاياه ، بل بنى ملكه على المساواة والعدل . واهمّ من ذلك انه عرف قيمة الحضارة العربية ، في جهاتها المادية وجهاتها العقلية ، واستفاد منها للبناء ، في عصر كان فيه التخريب يرافق كل استيلاء . . كان الولاة الاغلبيون والكلبيون قد تركوا في الجزيرة نظاماً اداريًا متقنًا فأبقاه مثلما فعل ابوه ، مستكملًا اياه بازالة اسباب الفوضى ، وقلّد العرب المناصب العالية ، واتخذ ديواناً للتحرير العربي ، ووقّع الاوراق الصادرة من هذا الديوان بعلامة عربية فحواها «الحمد لله وشكرًا لنعمه» . وحاكى ملوك العرب في ازيائهم وشاراتهم على قدر ما حاكى قياصرة بيزنطية، واباطرة الافرنج ، كأنه اراد ان يدلّ حتى بابهة ملكه على ان سياسته غير مرتكزة الى ترجيح عنصر على آخر . من ذلك انه اتخذ ازاء رعاياه المسلمين لقب المعزّ بالله ، اقتداء بالخلفاء ، وامر برفع المظلة على رأسه ، وانه كان له مصنع للطراز وصلت الينا بعض مصنوعاته ، منها حلّة هي عربية محض ، فانّ في وسطها شبه نخلة على كلا جانبيها اسد يفترس جملًا ، وفي هامشها اسمه «رجار» والقابه والسنة الهجرية (٥٢٨) مكتوبة بحروف كوفية عجيبة الشكل . اما مبانيه فدير القديس يوحنا شفيع النسّاك (S. Giovanni degli Eremiti) في بالرمو اشبه بمسجد اسلامي منه بدير مسيحي . وليس ذلك انّه وجد نفسه مضطرًا الى استخدام البنّائين المسلمين لفقدان الفنّانين

البيزنطيين او الاروبيين في ملكه، لان باقي ابنيته تدل على انه لم يقتصر على اتباع الاسلوب العربي؛ بل فعل ذلك مختارًا عن حبّ واعٍ للفن العربي، الذي سنراه مقدّرًا طوال الحقبة النرمانية، ومستفادًا به لخلق فنّ جديد، جامع بين اساليب البيزنطيين والعرب والافرنج، سيعرف بالفنّ النرماني - الصقلي .

وكما احبّ المعمار العربي، كذلك تذوّق شعر العرب، فرنّت في دار ملكه القصائد المادحة له بلغة المتنبيّ . واسمه مسجّل في تاريخ العالم العربي بحروف ذهبية، لأن كتاب رجار، الذي ألّفه العالم الجغرافي الادريسي بامره وبارشاداته، فاق جميع الكتب الجغرافية السابقة بمنهاجه العلمي الصحيح، كما سنرى .

ختم العلّامة الايطالي آماري ترجمة رجار الثاني بقوله : والحاصل كان سلطاناً متوّجاً (اي سلطاناً عربياً يحمل تاجاً كملوك الافرنج) . ولكن هذا العاجز يودّ لو قيل انه كان اول ملك اسّس دولة مبنية على توازن الطوائف والعناصر، لان النصارى والمسلمين، واللاتين والاغريق، والايطاليين والنرمان، كانوا يتعاشرون في ظل ملكه احسن تعاشر، تمنعهم يده القوية من التظالم، ولا تترك لطائفة او لفئة سبيلًا للتغلّب على اخرى . وكادت سياسته توجد شعورًا قوميًا صقليًا، وقل ايطاليًا، يرجح سائر الشعورات، وينسجم مع موقف صقلية التي اصبحت في ايامه دولة مستقلة لا تخضع لاحد، لا للامبراطور ولا البزنطية . كادت، ولكن وفاته حالت بينه وبين انجاز عمله . فعادت الاقطاعية ورفعت رأسها وعاد الشقاق ومزق الوحدة .

غليام الاول وغليام الثاني

بينما كان غليام الاوّل، خلف الملك رجار، يسعى للتأليف بين جميع طبقات شعبه مثلما فعل والده، كان الاقطاعيون يظلمون الاهالي ويحاولون توسيع املاكهم بانتزاع الاراضي من ايدي المسلمين، متذرّعين بانها كانت في الاصل للنصارى . فاثاروا بذلك ثورة انتقم في اثنائها المسلمون بمذابح خلفت الضغائن في نفوس النصارى، كما تركت شدّة قمعها في قلوب المسلمين احقادًا لا تمحى . وتشجع المسلمون ايضاً بانسلال المستعمرات الافريقية من يد غليام على اثر الاستياء الذي كان اثاره هنالك سوء تصرّف عمّاله . كل ذلك رغماً من جهود غليام في استمالة المسلمين وتشجيعه لادبهم وكونه حاميهم الوحيد، وكونه مشكورًا عندهم على ذلك، كما يشهد المؤرخ اوغو فلكاندو (Ugo Falcando) عندما يقول انّ نساء بالرمو المسلمات شيّعن نعشه، يوم مات، بدموع صادقة لا تشبه الدموع الرسمية التي كانت تسيل من عيون سائر الندّاب .

اماً خلفه غليام الثاني ، فلنترك الكلام عليه للرحّالة الاندلسي ابن جبيرالذي وصل الى مسينة (Messina) على سفينة كانت كسرتها العواصف فاوشكت ان تغرق .

« ثم تمكّن الشروق ، فجاءتنا الزوارق مغيثة ، ووقعت الصيحة في المدينة ، فخرج ملك صقلية بنفسه في جملة من رجاله متطلعاً لتلك الحال . وبادرنا الى النزول في الزوارق، والامواج لشدّتها لا تمكّنها من النزول الى المركب ... ومن العجب ان هذا الملك الروميّ المذكور ابصر فقراء من المسلمين يتطلّعون من المركب وليس لهم شيء يؤدّونه في نزولهم لان اصحاب الزوارق اغلوا على الناس في تخلصهم ، فسأل عنهم فأعلم بقصتهم فـأمر لهم بمائة رباعيّ من سكّته ينزلون بها ، وخلّص جميع المسلمين عن سلام » .

ويواصل كلامه قائلاً :

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان (الذين قال المؤلف سابقاً ان اكثرهم متمسكون بشريعة الاسلام) ... وهو يتشبّه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله ، بملوك المسلمين. ومن عجيب شأنه المتحدَّث به انه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته « الحمد لله حقّ حمده » . وكانت علامة ابيه « الحمد لله وشكراً لنعمه ».

ويقول في مكان آخر :

« واما جواريه وحظاياه في قصره ، فمسلمات كلّهن » .

ويحكى لنا في هذا الخصوص انّ الملك سمع جواريه وفتيانه يذكرون الله ورسوله بمناسبة زلزال ، وقال لهم لمّا سكتوا عند ظهوره متوجسين منه : « لا تخافوا ، وليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به » .

وكان غليام الثاني يدخل هو ايضاً الاشكال المعارية العربية في مبانيه ويتلذّذ بالاستماع الى القصائد والاغاني العربية .

هكذا فرضت الثقافة العربية نفسها على العواهل النرماندين ، بمقدار اجاز لنا ان نقول في محاضرتنا السابقة انّ السيطرة العربية اتت ، بعد زوالها ، ثماراً لم تكن اتتها وهي في عنفوانها ، وامتزجت بثقافة النرمان الغربية امتزاجاً جعل صقلية ملتقى حضارتين.

كان بعض بعيدي الانظار ، المترفعين على عصرهم ، يتمنّون لو يتماشى مع امتزاج الحضارتين

تقارب بين اتباع الديانتين وبين جميع العناصر لكي تتكوّن امّة صقلية متراصّة الاجزاء ، ولكنّ ذهنية اهل ذلك الزمان ما كانت ناضجة تلبّي نداءهم . خذوا ابن جبير مثلاً ، كان يسافر في مراكب مسيحية تنقل الحجاج المسلمين ، وبالطبع تنقل المسيحيين ايضاً معتنية براحة ركابها الى غاية تخصيص قسم على حدته لكل من الفئتين ، ومع ذلك كان يشمئز من رفقة النصارى ويدعو الله ان يريحه منها . كان القرويون المسيحيون ، في طريقه من مسينة الى بالرمو ، يسبقون بالتحية له ولرفقائه ويحتفون بهم ، فبدلًا من ان يسر بذلك كان يرى في لطفهم فتنة للمسلمين . فماذا ، تخالون ، يقوله عندما يبلغه انّ في ناحية من نواحي صقلية نصرانيات جميلات ؟ اسمعوا كلامه بنصّه : « في الجبل للروم بلد كبير ويقال انّ حريمه من احسن حريم هذه الجزيرة . جعلها الله سبياً للمسلمين. » امّا النصارى ، فان بعض اوساطهم كانت تندد بالملوك النرماندين وترميهم بالكفر بسبب مجاملتهم للمسلمين . وكانت القوانين تمنع ردّ المسلمة التي فرّت من زوجها ودخلت كنيسة وتنصرت الى بعلها ، قصاصاً لما كان يفعله المسلمون في عهد سيادتهم في حق المسيحية ، زوجة المسيحي ، التي اسلمت . الامر الذي كان له تأثير حسن في معاملة الازواج لزوجاتهم ، لانهم «الدهر كله في مداراة الاهل خوف هذا الحال» ، كما يقول ابن جبير . ولكنه ، طبعاً ، كان يغضب المسلمين .

الحاصل كان التوازن بين اتباع الديانتين عادم القرار . رغماً عن مجهودات الحكام ، فما كان للمسلمين ان يرضوا بالخضوع بعد ان كانوا اسياداً ، وان لا يرنوا الى اعادة الامور الى نصابها ، خصوصاً وان رايات الموحّدة ، الخافقة في سماء المغرب ، كانت تنعش عزائمهم . وما كان من المستطاع للنصارى انصاف المسلمين ، لبقاء ذكر النهب والغصب الذي كانوا عانوه في الماضي ، ولسنوح الفرصة لاسترجاع المغصوب (esprit de revanche) عند الطرفين .

فعبثاً وعظ المؤرخ النرماني - الايطالي اوغو فلكاندو (Ugo Falcando) اهالي صقلية يوم مات غليام الثاني ، ووصّى بالملك للامبراطور الالماني العتيد هنري السادس بصفته زوجاً لكوستانسا (Costanza) بنت الملك رجار الثاني ، رغماً عن انوف اشراف النرمان النافرين من تدخل الالمان في شؤون بلادهم . نعم عبثاً خاطب فلكاندو اهالي صقلية بالكلمة الآتية : «لو توّج اهالي صقلية رجلًا مقرًا له بالمقدرة ، ولو زال التنازع بين المسيحيين والعرب ، لتمكّن الملك الذي يختارونه من رد حملات الاجانب ومن اصلاح امر الدولة البادية علائم انحلالها . ولكن بعد ان سادت الفوضى وعاد الناس لا يخافون سلطة الملك ، قد اصبح ، وللاسف ، من المتعسّر ان يكفّ النصارى عن التعدي على العرب ، وان يكفّ هؤلاء ، وهم مسيئو

الظن بهم وناقمون ظلمهم ، عن التمرّد وعن كبس حصن على البحر تارة ، وقلعة في الجبال طوراً . فاذا وقع ذلك ، فكيف يتمكن الصقليون من مقاومة غزوات العرب بيد ، ومحاربة الالمان — والحرب معهم عنيفة — بالاخرى ؟ فيا ليت وحّد الاشراف والعوام ، والنصارى واهل الاسلام نياتهم ، واجمعوا على اختيار ملك لهم ، وبذلوا كلّ جهودهم في سبيل ردّ هجومات الهمجيين » .

حصل بالفعل الاتفاق المرغوب في الاول ، لان الاهالي رفضوا وصيّة غليام ونادوا بتنكريدي (Tancredi) ، ولد روبر غسكار الغير الشرعي ، ملكاً . ولكن التعاون بين المسيحيين والمسلمين لم يدم الّا لحظة وانتهى بمعارك دامية في بالرمو ، ادّت بالمسلمين الى مغادرة العاصمة نهائياً والالتجاء الى الجبال ، حيث حلموا بايجاد دويلة اسلامية على حدتها واتخاذ معقلهم الطبيعي قاعدة لاعادة حكم العرب في الجزيرة .

فريدريك الثاني وجلاء العرب

فلما مات تنكريدي ومات هنري السادس الذي كان قد جاء الى ايطالية لاستلام الملك ، خلا الجو لكونستانسا بصفتها وصية على ابنها وابن هنري ، فريدريك الثاني (Frédéric II) ، الذي كان عمره اذ ذاك ٤ سنين فقط ، فماتت بعد قليل ، تاركة الملك الصغير في يد وزرائها ، فانقرضت بذلك ، بسكوت ، الاسرة المالكة النرمانية ، مع بقاء النرمان الذين حاصروا بالرمو مع الوزير ماركولدو (Marcoaldo) ، الذي حاول خطف الولد الاستئثار بالملك ، ثم ، لما راهق فريدريك وصار ملكاً بالفعل ، استمروا على معاداته وتحالفوا مع اتّون (Otton) الالماني الذي كان يزاحمه في وراثة تاج الامبراطورية وظلّوا يكابرون نوّابه اثناء غيابه الطويل في المانية . عاد فريدريك من المانية منصوراً على جميع اعدائه ، ووجد عرب صقلية يهاجمون الاديرة ويأسرون الرهبان ويقطعون الطرق تحت قيادة زعيم يدعى ابن عبّاد ، فزحف عليهم وانزل بهم الضربة الاخيرة وقتل قائدهم شنقاً ونفى معظمهم الى مدينة لوجارة (Lucera) في ابوليا ، ثم بدّد بقاياهم في السنين التالية ، ونفى البقية الباقية الاخيرة الى لوجارة حوالي سنة ١٢٤٩ .

هكذا تم جلاء العرب عن صقلية ، بعد ان هبط سعي النرمان لاقامة تعاشر ثابت بينهم وبين المسيحين ، ولكنّ حسن تعاشر الثقافتين لم يزل :

ذلك ان فريدريك قضى ايام طفولته في ظروف حبّبت العلم اليه .

حجره اوصياؤه ، بعد وفاة والدته كوستانسا ، في داره ليتمكنوا من الانهماك في دسائسهم وخصوماتهم . وكان الجوّ ، في تلك الدار ، حول ذلك الطفل المخذول ، مملّاً ،

ولكنه كان كله بروقاً ورعوداً بخارج الدار، حيث كان اعضاء مجلس الوصاية، واشراف الزمان وزعماء الالمان، والاكابر والعوام، والمسيحيون واتباع الاسلام، يتنازعون ويتناحرون. فماذا كان للغلام المسكين ان يفعله الّا ان يلازم كناسه فعل الغزال الذي اوجله عواء الذئاب؟ وكيف «يقتل» وقته، وكانت الطبيعة قد جادت عليه بالذكاء، الّا بالاكباب على التعلّم؟ ومن حسن بخته ان معلميه نيقولا الترنيتي (Nicola di Taranto) ويوحنا الترايتّي (Giovanni di Traietto) كانا فريدَي زمانهما في التضلّع بكافة العلوم وكانا يجمعان بين ثلاث ثقافات: اليونانية، واللاتينية، والعربية. فثقف تلميذهما بالثلاث. ولما كانت الثقافة العربية ذات القدح المعلى في ذلك العهد، اياها فضّل واياها استفسر كلما حار في مسألة.

فلا غرو، اذًا، ان يوجد بين ايدينا كتاب عربي عنوانه «المسائل الصقلية» وهي المسائل التي وجّهها فريدريك الى السلاطين المسلمين والاجوبة التي اعطاها عنها الصوفي المرسي المشهور عبد الحق ابن سبعين، بامر الخليفة الرشيد خليفة الموحّدة، في مواضيع مثل الآتية:

١ — تفصيل نظرية ارسطوطاليس في قدم العالم.
٢ — العلم الالهي، وما هو المقصود منه، وما مقدماته الضرورية ان كان له مقدمات.
٣ — المقولات: اي شيء هي وكيف يتصرّف بها في اجناس العلوم حتى يتم عددها (وعددها عشر) وهل يمكن ان تكون اقل او اكثر وما البرهان على ذلك؟
٤ — حقيقة النفس.
٥ — اين خالف اسكندر الافرودسيّ ارسطوطاليس الحكيم.

مما يدل على رحبة افق فريدريك العقلي، اطلاعاً واستطلاعاً.

ولا غرو ايضاً ان يكون قد استرفق في حرب الصليبية العلامة ابن الجوزي الصقليّ ليواصل تدريسه في علم الجدل، وان تكون المفاوضات التي دارت بينه وبين الملك الكامل في هذه الحرب الصليبية الغربية التي لم يجاهد فيها فريدريك المسلمين، بل اتخذهم اولياء وانصارًا على تحقيق حقه في تاج اورشليم، نعم، ان تكون هذه المفاوضات قد جرت بوساطة شاعر من شعراء الملك الكامل، اسمه صلاح الدين الاربلي، وبتراسل تناوبت فيه الاقتراحات السياسية والمسائل الفلسفية التي يعرضها فريدريك على السلطان، ويحلها هذا بواسطة العلامة علم الدين الملقّب بتعاسيف.

وبجانب الفلسفة علم الحيوانات. كانت لفريدريك حديقة حيوانات متنقلة تتبعه في كل

رحلاته فاغناها الملك الكامل بفيل اثار استغراباً عظيماً عند رجوع الامبراطور الى ايطالية ، على نحو ما استغرب الشاميّون الدب الابيض الذي اهداه فريدريك الى الملك الاشرف اخي الملك الكامل .

ولم يكتف سلطان مصر بان يهدي الى فريدريك الحيوانات الغريبة. بل ارسل اليه منجّماً اسمه ثئودوروس (Theodoros) يحسن اللغة العربية ليكشف له اسرار علم الكواكب العَرَبي.

وكان لفريدريك فيلسوف رسمي ، وهو ميشال اسكوتوس (Michel Scothus) المشهور ، ممثل الثقافة الاسبانية — العربية ، الذي ترجم له عن العربية « كتاب الحيوانات » وعدة كتب اخرى . ووجد الملك مترجمين آخرين في اليهود المشبعين بالثقافة العربية ، امثال موسى البلرمي (Mosè di Palermo) الذي نقل له الى الايطالية « كتاب البيطرة » المنسوب لبقراط ، ويعقوب ابي ماري ناقل « المجسطي » وشرح ابن رشد . كان فريدريك كذلك واقفاً على مضمون كتاب «دليل الحيارى» لموسى الميموني ، نبراس الفلسفة العربية اليهودية ، ومن المحتمل ان يكون هو من امر بنقل كتاب «الشباب والملاح» ، المنسوب للرازي الحكيم، من العربية الى اللاتينية .

فهكذا تشابكت في صقلية ، لا بل في ايطالية ، غصون دوحتين قديمتين ، دوحتي الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ونبتت في ظلّها الوارف زهرة ناعمة ، زهرة الشعر الايطالي .

الحاصل ، كان لهذا الملك الالماني اصلًا والايطالي مولدًا ونزعةً (اذ انه ولد في يزي (Iesi) احدى مدن ايطالية وفضّل في سكناه شمس ايطالية على غيوم المانية) ، والشرقي في عاداته من حيث انه قضى اغلب اوقاته في لوجاره (Lucera) محفوفاً بمسلمي صقلية المنفيين متخذًا اياهم حرساً اميناً ، وقلد ملوك العرب في ازيائهم وفي الصيد بالبزان . وفي التسرّي ايضاً. نعم ، كان لهذا الملك فضل عظيم في نشر الثقافة العربية في اوربة .

نشرها ملتهماً بفكرة انّ العلوم والآداب تأبى التميّز بالمكان ، وترنو الى التلاقي والتعارف والتهادي في حرم لا تدوسه رجل اي تعصّب ، فبهذه الروح ساعد مدرسة سالرنو (Salerno) الطبيّة ، المذيعة للطب العربي ، كما ايد جامعه بولونية (Bologna) ، مركز تدريس الفقه الروماني، واسس جامعة نابولي (Napoli) منارة العلم الجنوبي .

وبهذه الروح دعا الى بلاطه شعراء پروفنسية (Provence) ، وسمع في نشائدهم صدى الموشحات الاندلسيّة ، وقال بذاته الشعر بالايطالية ، واصغى اليه دافقاً ، وهو مولود جديد ، من شفاه رجال حاشيته .

٤

الحضارة الصقلية العربية

١

نظرة عامة

سأبحث اليوم عن الحضارة الصقلية العربية من الوجهة الاجتماعية والوجهة الاقتصادية مؤخرين باب العلم والادب الى المحاضرة اللاحقة مع تمهيد الطريق اليه ببعض المقدمات .

نستهل بالعناصر التي تألف منها المجتمع الصقلي بعد الفتح الاسلامي .

التركيب العنصري ورد الفاتحون من افريقية ، اي من تونس الحالية ، والمعلوم ان السواد الاعظم من اهالي تلك البلاد كان بربرياً . وكان العرب اقلية اساس نظامها الجند اي مجموع وحدات عربية تعيش في معسكرات . ولما كانت كل فرقة قبيلة تحافظ على نظامها القبلي الاصلي،وكانت استرفقت نساءها واولادها وعبيدها ومواليها سرعان ما تحولت تلك المعسكرات الى مدن ، خصوصاً وان التجار والصناع وارباب المهن لم يلبثوا ان التموا حول المجاهدين واردين من كل الجهات . كانت بعض الجنود قحطانية الاصل وكانت بعضها عدنانية. ثم ارسل الخلفاء العباسيون الى افريقية جنداً من الخراسانيين ، مع من كان مندمجاً فيه من سائر العجم . وفي هذه الاثناء كان البربر قد استحالوا هم ايضاً الى جزء متمم للجيوش الاسلامية الافريقية .

من ثم اصبح سكان صقلية المسلمون في اوائل الفتح منقسمين الى عرب من عدنانيين وقحطانيين ، وعجم متفاوتي التعرُّب ، وبربر .

اما النصارى ، وكانوا مختلفي الاصل هم ايضاً لكون بعضهم من اهل البلد وبعضهم دخلاء من شتى العناصر الخاضعة لقيصر بيزنطية ، فكم كان يا ترى ، عدد الذين اسلموا منهم

خصوصاً في الركن الغربي الشمالي الذي كان فيه المسلمون ارسخ اقداماً ؟ وان علماء التاريخ لحدّ الآن لم يتمكنوا من الاجابة بالضبط عن هذا السؤال لفقدان الاخبار المفصلة ، ولكن الارجح ان عدداً وافراً من نصارى المنطقة الواقعة بين مزاره وبالرمو اعتنق الاسلام ، هذا ما نذهب اليه بناء على قول ياقوت ان اكثر نصارى تلك الجهة اسلموا ، مقيدين اياه بما في ايدينا من الشهادات التاريخية الدالة على ان عدد المسيحيين الذين بقوا على دينهم هنالك كان غير قليل .

مهما كان ، فان « آماري » يحسب ان عدد مسيحيي صقلية بعد تمام الفتح كان مليوناً واحداً ، وعدد المسلمين ستمائة الف نفس ، مضيفاً الى ذلك ان المسلمين هم الاغلبية في الجهة المذكورة ، وللنصارى الاغلبية الساحقة في منطقة مسينا (Messina) ومنطقة نوطس (Noto) . وسيراكوزا (Siracusa) بين بين ، مع رجحان النصارى . وكانت توجد ايضاً في الجزيرة جماعات يهودية .

من المعلوم ان المسلمين لم يُكرهوا احداً لا في صقلية ولا في غيرها على تبديل دينه وانما فرضوا على الكتابيين الجزية . وعين ذلك فعله فيما بعد النرمان بالمسلمين ، اذ اطلقوا لهم الحرية في الدين وفرضوا عليهم اتاوة .

غير ان الظاهر ان الهيئة المدبرة لشؤون الكنيسة الصقلية تناقصت شيئاً فشيئاً . لان النرمان لم يجدوا في صقلية لدى نزولهم فيها الا رئيساً دينياً مسيحياً واحداً ، وهو مطران بالرمو ، في حال ان الاساقفة كانوا خمسة عشر منهم مطرانان احدهما في سيراكوزا والآخر في كاتانية في عهد البيزنطيين . فاولية كرسي بالرمو في نظام الكنيسة ، اذاً ، راجعة الى عهد العرب . ثم ان الغارات المتوالية التي كان المسلمون يشنونها على نصارى صقلية ريثما يتم لهم الاستيلاء على الجزيرة باسرها اخلت جانباً وافراً من الاديرة ، كما دمر النرمان اثناء زحفهم البطيء عدداً غير يسير من المساجد .

اما املاك المغلوبين ، فالراجح ان المسلمين عملوا في شأنها باحكام المذهب المالكي فاعتبروا اراضي الذميين وقفاً لله ، اي للجماعة ، اي تركها لاربابها برسم الاجارة المؤبدة بمقابل الخراج ، ما خلا اراضي البلدان التي فتحت عنوة او التي أخلتها الحرب من حائزيها ، فان الظاهر ان هذه وزعت بين المجاهدين . ان التفاصيل عن هذا الشأن مفقودة ، ولكن الاكيد ان عدداً وافراً من النصارى بقوا على اراضيهم يتصرفون فيها كيفما شاؤوا مقابل خراج يؤدونه ، او يستغلونها بصفة مزارعين ومساقين لا خراج عليهم اذا كان حق

التصرف فيها احيل الى المسلمين ، بقطع النظر عن المسيحيين الذين كانوا مستأجرين او اجراء من الاصل فظلوا على حالتهم .

ثم جاء الزمان ولا شك انهم تملكوا جملة اراضٍ ، كانت الحرب قد تركتها خالية . ولكنهم ، على وجه عام ، اقتصروا على ادراج الحالة العقارية الراهنة في اطار نظامهم الاقطاعي ، غير مفرقين في ذلك بين اهل الاسلام واتباع المسيح . كانت لاصحاب الاقطاعات رئاسة ادارية تخولهم حق جباية بعض الضرائب المفروضة على الاراضي اما نقدًا او غلة او عملًا . فكان ذلك يظهرهم مظهر الملاك وان كانت صفتهم القانونية غير ذلك . ولكن الاراضي تركت لاربابها سواء انصارى كانوا ام مسلمين ، وحلّت الغلال او الاموال او الخدمات الشخصية المطلوبة منهم محل الخراج المؤدّى فيما قبل .

فلنرجع الى اقسام المجتمع الاسلامي . قلنا انه كان متألفاً من العرب والعجم والبربر وان العرب كانوا ينقسمون الى قحطانيين وعدنانيين او ، بعبارة اخرى ، الى يمنية وقيسية . ولا يخفى النزاع الالد الذي قام بين هذين العنصرين في الشرق والمغرب ، متمادياً في بعض البلدان الى امد ليس عنا ببعيد . فلم تنجُ صقلية من هذا المرض . ولكنه لم يبلغ فيها الحدة التي وصل اليها في اقطار اخرى ، بل ظل انحرافًا خفيفاً للمزاج بعد ان كان داواه الخليفة الاموي هشام في افريقية بطرق فعّالة ، وكان الخلفاء العباسيون قد اكملوا العلاج بحقنة خراسانية شديدة التأثير .

بخلاف ذلك كان للتنافس الموجود بين العرب والبربر ازمات حادة ، افضت في سنة ٨٨٦— ٨٨٧ الى حرب بين العنصرين. ودام الشقاق بينهما حتى بعد ان تصالحا على منتهى سنة ، بدليل ان هدنة ابرمها المسلمون ونصارى صقلية بعد تمام تلك الحرب بعشر سنين تضمنت شرطاً غريباً ، ورد فيه ان الرهائن التي سيقدمها المسلمون للنصارى كل ثلاثة اشهر ستؤخذ مرة من العرب ومرة من البربر . فالذي يؤخذ من هذا النص ان التفرقة بين العنصرين كانت قد البست صفة رسمية حتى ازاء الاجانب . وكان يطابق التباين الذي في النفوس تفاصل في المستقر فان البربر كانوا يقيمون في المنطقة التي بين المازار (مزارة) وكركنته ، وكانت مواطن العرب في شمالها . ذلك ما استخلصه آماري من كون اسماء القرى والضياع في هذه الجهة الاخيرة عربية الصيغة وكونها بربرية محضة في الجهة الاولى مثل (Macchinèsi) من « مكناسي » و (Aiarzeneti) من « هجر الزناتي » .

مضى الزمان ، واضاف اخيرًا امراء الاغالبة الزنوج الى هذا الخليط العنصري باتخاذهم

العبيد السود حراساً لاشخاصهم . ثم حفّ الخلفاء الفاطميون ونوابهم الكلبيون انفسهم بالصقالبة ، اي بالماليك البيض الذين كان النخاسة يجلبونهم ، وهم صغار السن ، من بلدان الاسلاف (Slaves) ومن غيرها. وكثيرًا ما يجبّونهم ويبيعونهم باثمان رفيعة من الامراء ليربوهم ويتخذونهم غلماناً وفتياناً . وكان لهؤلاء الفتيان نفوذ عظيم في زمان الامراء الكلبيين والملوك النرمانيين لانهم اعوانهم وبطانتهم ، ومنهم الوزراء والكتبة والقادة . وفي بالرمو حارة كانت تسمى حارة الصقالبة . فحقًا ان الحضارة الاسلامية حضارة مركبة كثيرة العناصر والعوامل ، شأن كل حضارة عظيمة .

ولم يكن التركيب المسيحي في صقلية اقل تعقّداً ، اذا تذكرنا ان الخليط الصقلي اللاتيني البيزنطي الاصلي انضم اليه فيا بعد ، زيادةً لتلونه ، العنصر النرماني ثم الالماني متلوًّا بالاراغوني — الكتالاني وهلم جرًا . فتصاهرت هذه العناصر المتباينة كلها في البوتقة الصقلية وكونت وحدةً لا تتجزأ ، كما تجتمع انواع العنب من ابيض واحمر ووردي في المعصرة وتسيل منها محالة الى خمرة جيدة براقة ذائعة الاريج ، حسب التشبيه الوارد في احدى منظومات الشاعر الايطالي كردوتشي (Carducci) .

فهل دخل الجزء الاسلامي من سكان الجزيرة او بعضه في هذا المزيج رغماً عن الحاجز الديني ؟ او بعبارة اخرى ، هل في عروق الصقليين قطرات من الدماء العربية والبربرية ؟ جوابي ايجابي لان الزواجات المختلطة كانت كثيرة الوقوع في صقلية وكانت تعقد على شروط لم نسمع بمثلها في باقي ديار الاسلام . فاسمعوا ما يقوله ابن حوقل بلسان الاستهجان :

« هم المشعمذون (اي المشعوذون) . اكثر اهل حصونهم وباديتهم وضياعهم رأيهم التزوج الى النصارى على ان ما كان بينهم من ولد ذكر لحق بابيه من المشعمذين وما كانت انثى فنصرانية مع امها » .

اذًا ، هذه النصرانية المذكورة عند ابن حوقل اذا تزوجت من مسيحي ستلد له اولادًا ربع دمائهم عربي او بربري . واذا كانت من بينهم بنت واقترنت بمسلم تكررت الحكاية ، وهلم جرًا ، الى تبادل دماء متواتر لا يزال بادي الاثار في ملامح كثيرين من الصقليين .

نظام المجتمع الصقلي

انتقل الآن الى نظام هذا المجتمع المبرقش ولن اكرر ما قلته في دروسي السابقة ، وانما استلفت الانظار الى الاهمية المخصوصة التي اكتساها في هذا النظام ما كان يقال له « الجماعة » . كان البربر يتمسكون بمبدأ « وامرهم شورى بينهم » فسرى هذا التمسك في جيرانهم العرب بصورة اجبرت الحكام على مراعاة

ذهنية اتباعهم . فاعتاد الاغالبة ونوابهم في صقلية استشارة « الجماعة » في مهام الامور رغماً عن ميلهم الى الاستبداد . فما هي الجماعة ؟ هي جملة المسلمين في النظر ، اما فعلاً ، فانها عبارة عن مجلس وجوه العاصمة واعيانها بما فيه العلماء . فتكررت هذه الحالة في باقي المدن حول ممثل الحكومة ، بحيث اصبحت الجماعة اشبه شيء بالمجالس البلدية الحالية . وللذميين ايضاً حول رؤسائهم المحليين مجالسهم ، ورثة مجالس الاعيان المسند اليهما امر تدبير شؤون المراكز المسكونة في عهد الرومان والبيزنطيين . فبالخلاصة ، كانت حصة الشعب في الادارة اكبر في صقلية منها في سائر البلدان العربية ، وظل الصقليون غيورين على هذه المجالس حتى فيما بعد.

كذلك تلقى الصقليون من العرب تركات ادارية اخرى سوى التي ذكرناهـا في دروسنا السابقة . خذوا السكة مثلاً .

اننا نجد في مملكة صقلية ونابولي طوال عهـد اربع دول النرمانية فالالمانية فالانجوية فالاراغونية، اي طوال ٨ قرون، نقداً يقال له بالايطالية «الترينو» (Torino) او تري (Tari) وما ادراك ما هو التري ؟ هو الرباعي ، اي ربع الدينار الذي كان يضرب في صقلية في عهد الاغالبة والفواطم قلده النرمان في بالرمو وآمالفي (Amalfi) وسالرنو (Salerno) تاركين فيه كتاباته العربية ، ثم قلده فريدريك الثاني وخلفاؤه ، ثم عمله الملوك الاراغونيون من الفضة .

افترض آماري ان جمع درهم كان في الدارجة العربية الصقلية « دراهيم » وان لفظ التري او الترينو محرف من « دراهيم » فعارضه الاستاذ نلينو (Nallino) بان جمع الدرهم « دراهم » حتى في اللهجات الدارجة المغربية ، وانه من الصعب ان يكون الرباعي وهو ربع الدينار قد اخذ اسمه عن الدراهم . اما هذه الصعوبة الاخيرة فانني اجد حلها في ما قرأته في كتاب لافي. پروفنسال (Lévi-Provençal) « تاريخ اسبانية الاسلامية » من ان ارض الاندلس كانت فيها عملة اسمها دينار دراهم . وبعد ذلك يسهل علينا تفسير قلب دراهم الى (TAPHONTAPION) بالاغريقية و « تري ترينو » باللاتينية ، اذا تذكرنا ان صوت الدال مفقود في اللغـة الاغريقية الحديثة حيث يصير تاء وان حرف الالف شديد الامالة في التلفظ المغربي وان اسقاط هاءات اللغات الاجنبية عادة في اللغات المشتقة من اللاتينية وفي الاغريقية ، وكذلك من عادة اللغات اللاتينية الحديثة قلب الميم التي في آخر الكلمة الى نون او الى غنّةٍ سريعة التواري .

لا اريد ان اسهب في باب المسكوكات ناهيكم ان اسم السكة نفسها بالايطالية (zecca). كذلك انتشر في ايطالية الجنوبية وفي بعض ايطالية الشمالية ايضاً الاوزان المستعملة عنـد العرب في صقلية مثـل الرطل الذي لا يزال معروفاً باسم (rotolo) وموزوناً به في بالرمو

ونابولي، والقنطار المسمى بالايطالية (cantàro) . ومن ذكريات طفولتي ان في مدينة (San Remo) في ايطالية الشمالية كانوا يزنون الفول اليابس والفاصوليا والحمص والحنطـة وغيرها من الغلال بال (rubbo) وهو الربع ، اي ربع القنطار . والصقليون لهم مكيال اسمه (caffisu) الظاهر خروجه من القفيز .

الحياة الاقتصادية

وعلى ذكر القفيز فلنقفز الى الحياة الاقتصادية . كانت الزراعة في العهد العربي اساسها وازدهرت كل الازدهار . قال ابن حوقـل (الذي زار صقلية في سنة تسعمائة وثلاث وسبعين) : « ان ارضهـا مسكونة مزروعة » ووصف عمارتها ، ولو مع بعض الاحتفاظات الناشئة عن عدم ميله الى الصقليين . بيد ان المقدسي، الذي زار الجزيرة بعده بثلاث سنين،اثنى على زراعتها بدون قيد ، كما فعل ابن جبير في عهد النرمان حين قال : « وخصب هذه الجزيرة اكثر من ان يوصف وكفى بانها ابنـة الاندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على اختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها ».

تتلو هذه الجملة جملة توهم القارئ لاول وهلة ان المسلمين ما كانوا في ذلك الوقت يشتركون في هذا التعمير الا بصفة اجراء النصارى اذ يقول صاحب الكتاب :

« لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون في مناكبها ويرتعون في اكنافها والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة في استعمالهم واستصناعهم ».

على ان العلامة آماري فحص سجلات ذلك العهد وصكوكها وعثر على عـدة عقود في بيع الاراضي وشرائها تثبت كون المسلمين يتمتعون بحق الملكية ولهم عقارات يتصرفون فيها يبيعونها ويورثونها مثل النصارى ، وان كانت فيهم وفي النصارى على السواء طبقة لا تملك الاراضي بل تشتغل فيها بالاجرة او بموجب المساقاة والمزارعة ، كما كانت الاحوال في الارياف في كل العصور وفي كل الاقطار . وكان اسم هذه الطبقة العاملة بالعربية الحرش اي الخشان ترجمة للكلمة اللاتينية (rustici) التي معناها اهل الريف كأن البداوة والغلاظة شيء واحد كما هو الحاصل في معنى كلمة (paysan) الفرنسية وفي كلمة (rustre) المشتقة من (rusticus). واما الطبقة المستعملة فكان اسم افرادها الملس بمعنى « الناعمون ». ولا اظن هذين المفردين اطلقا على هذا المعنى بالعربية في غير صقلية .

كان العرب الذين جاءوا الى الجزيرة جنودًا لا يعرفون المحراث والمحفار مثلما يألفون الرمح والسيف ، وكان الصقليون من جهتهم قدماء العهد بالزراعة . ألم نقل ان صقلية كان يقال لها انبار روما ؟ ومع ذلك ادّى المسلمون للزراعة الصقلية خدمات لا تنسى بثلاثة اوجه :

اولًا – بان جلبوا الى الجزيرة البرابرة وهم فلاحون ناشطون .
ثانياً – بان في صفوفهم بعض الشرقيين الواقفين على طرق الحرث والريّ المنتهجة في ما بين النهرين فعلّموا الصقليين اياها .
ثالثاً – بان ادخلوا على الجزيرة نباتات لم تكن معروفة قبلهم وفي مقدمتها القطن .

تعرف سكان صقلية في عهد الحكم العربي بالقطن، ولم يلبثوا ان اكتسبوا مهارة عجيبة في زرعه وانباته حتى قال ابن العوّام الاشبيلي في كتابه في الفلاحة انهم كانوا قدوة للاندلسيين في طرق انبات القطن في الاراضي الجدباء . وورد في كتاب آخر في الفلاحة لعبدالله بن محمد ابن الحسين ان الصقليين كانوا من الاجتهاد بحيث كانوا يعشبون الحقل حتى عشر مرات قبل ان يزرعوا فيه القطن (آماري) . وكما احسنوا زراعته احسنوا غزله وحياكته ، وكانوا يعملون به القرطاس كما كانوا يعملونه من البردي الذي لا يزال نابتاً في ناحية سيراكوزا زينةً لنهرها ولعيونها . ودام انماء القطن واصدار منتجاته في صقلية الى اوائل القرن الخامس عشر ثم تنوسي .

كذلك اكثر الصقليون في عهد العرب من غرس التوت وتربية دود القز فوجدت منسوجاتهم الحريرية قبولًا عظيماً في كل الاسواق . كما وانهم تلقوا من العرب البطيخ، الذي صار اسمه في الدارجة الايطالية (pastecca) وفي الفرنسية (pastèque) ، ووزعوه بمنهج مخصوص سمي بالصقلي .

ولكن تراث العرب الخالد في صقلية هو النارنج اي البرتقال الذي لا يزال يقال له في صقلية (naranzu) كما يقال لزهره (zagara) . ولا يخفى ان البرتقال وسائر الحمضيات اثمن محصولات صقلية وصادراتها .

وتشهد بالدور الخطير الذي لعبه العرب في انماء فلاحة الصقليين عدة الفاظ عربية متعلقة بالزراعة لا تزال في لهجتهم الدارجة . منها :

(Noria) اي الناعورة – (gèbbia) وهي الجابية، اي الحوض الذي يجبى فيه الماء لسقي البساتين – (sénia) بالاسبانية (açena) وهي السانية – (zachia) او (saia) بالاسبانية (acequia) وهي الساقية – (galiggi) وهو الخليج بمعنى الجدول – (azzalora) وهي الزعرورة – (cabbarasi) وهو النبات الذي يقال له حب الراس – (adisa) وهي الديس – (durbu) وهو الدلب – (garaffu) وهو الغراف اي الاناء الذي يغترف به الماء بواسطة الناعورة – (marascia) وهي المرشة – (zabbara) وهي الصبارة – (mazzara) وهي المعصرة، ويقال

(baddu) وهو البدّ ، واصله ارامي (ܒܕܐ بالسريانية) .

كذلك ساهم العرب في انماء صناعة صقلية وتجارتها وقد سبق ذكر الطراز في احدى محاضراتنا الفائتة ، وذكر المنسوجات القطنية والحريرية في هذه . فنتمم الان قائمة المصنوعات والصادرات بالخزفيات التي ظلت مشهورة ومطلوبة في الخارج حتى بعد جلاء العرب ، والنشادر ، والاثمود ، ثم الكبريت والنفط المستعملين في الحروب لقذف الاعداء بالنار .

والان ، ايها المستمعون الكرام ، دعوني اقل لكم ان احد مقاييسي للحكم في مدنية قوم طعامه وعنايته بتحضيره وبالتنويع فيه ، وايدني الاب شارل بمحاضرته الاخيرة في هذا الرأي ، وزادني تمسكاً به جلوسي الى موائد لبنانية مضيافة . فلما شرعت البحث عن حضارة العرب في صقلية لم اتمالك ، وانا ايطالي ، عن ان اوجه لنفسي هذا السؤال : هل كان عرب صقلية يأكلون المعكرونة ؟ هل كان لحضارة بلغت ما بلغته من النضارة ان تجهل مصنوعاً يعدّ من ابرع مخلوقات فن العجانة ؟ كلا ، ما كانوا يجهلونها . اعطاني العالم الجغرافي العظيم ابو عبدالله محمد بن عبدالله الادريسي جواباً ملأ قلبي سروراً : الا وهو ان « الترابيع » ، مدينة عربية الاسم جادت عليها العناية بمياه غزيرة عذبة تصلح لتحريك الطواحين ولتحلية العجين كانت فيها مصانع تخرج منها الاطرية فتؤكل في صقلية وترسل الى كل نواحي ايطالية والاندلس والشرق وافريقية زينة لموائد المسيحيين والمسلمين . والاطرية هي الـ (vermicel) (شعيرية) اي المعكرونة الرقيقة غير المثقوبة ولا تزال تسمى (eletria) عند المرسيين في اسبانية و(etria) عند الصقليين . ان المعكرونة كانت معروفة عند الرومان ويقال لها (fides) تشبيها باوتار القيثار . فبارك الله عرب صقلية لصونهم للتراث الروماني ! فعسى ان تكشف لنا الايام ان معارف العرب كانت تمتد الى المعكرونة الغليظة المثقوبة والى العريضة والى المجعدة والى التي تحاكي في شكلها الفراشة ، والى التي تشبه الصدف ، غاطسة في بحر من الزبدة والبندورة ، فيزيدنا ذلك عجباً بعبقريتهم وتوقيراً لمدنيتهم .

وعليكم ، ايها اللبنانيون ، ان تبحثوا عما اذا كانوا يأكلون الكبة والتبولي والفوارغ واللحم بالعجين . ولنترك المزاح ، فنقول ان الطباخة العربية قد تركت اثاراً عميقة عند الصقليين منها انهم يأكلون الكُسكُسي المغربي ويسمونهم (cuscusu) ، ويكثرون من اكل المحاشي ، ويحبون الابزار ويأكلون حلاوي تشاكل الحلاوي العربية كالاسفنج الذي يسمونه (sfinza) وحلاوي اخرى قوامها اللوز والفستق والقرفة .

مع ذلك ، والحق يقال ، ثمة كاتب عربي رمى الصقليين بسوء الذوق في ما يأكلونه ويشربونه . قال ابن حوقل المتكرر ذكره ، بعد ان لاحظ ان اهالي بالرمو كانوا يشربون مياه الآبار والصهاريج مع توفر المياه الجارية في مدينتهم :

« وانما صرفهم الى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب قلة نزوانهم وكثرة اكلهم للبصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيهم بالني منه . وما فيها من لا يأكله كل يوم . وهو الذي افسد تخيلهم وهزّ ادمغتهم وحيّر حواسهم وغيّر عقولهم ونقص افهامهم وبلّد معارفهم وافسد سحنة وجوههم واحال امزجتهم حتى رأوا الاشياء ان اكثرها خلاف ما هي فيه » .

نعوذ بالله ، اننا مع عدم تعصبنا للبصل ، ما كنا نظن انه اشد خطرًا من القنبلة الذرية !

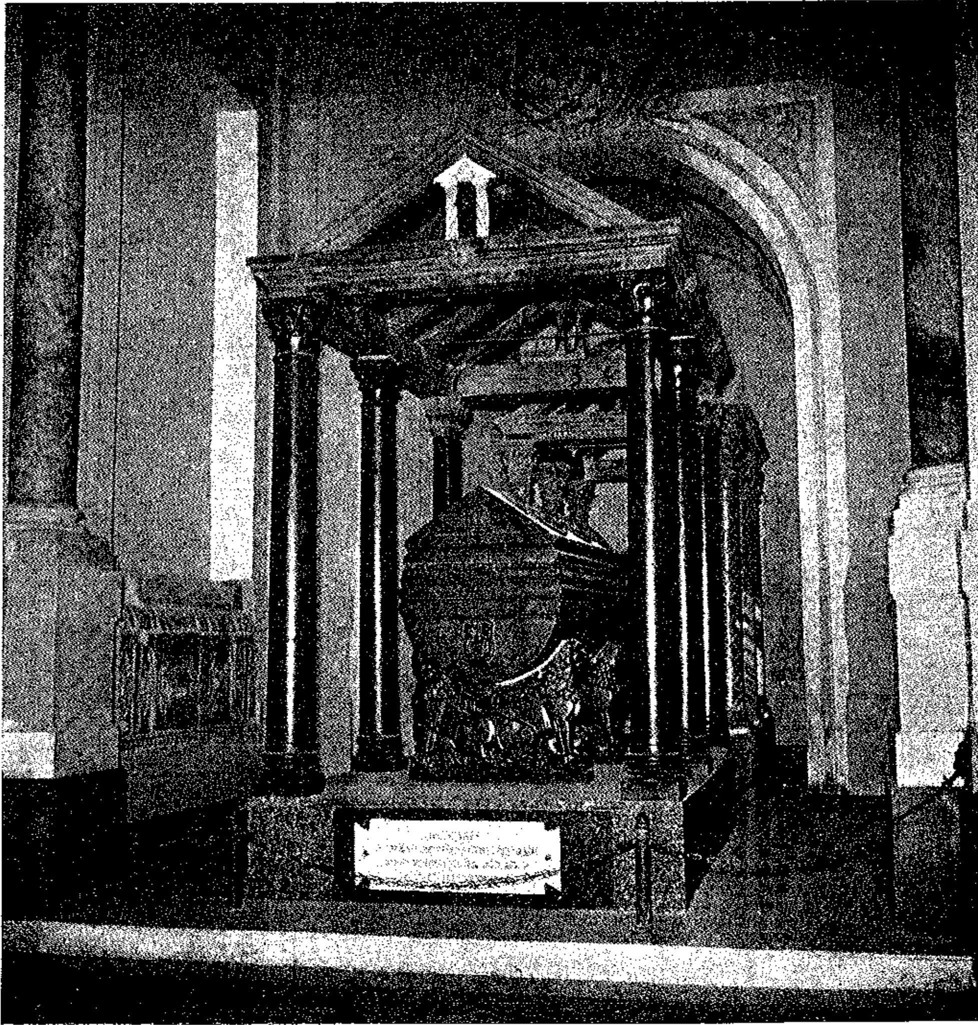
الحياة العقلية

ان هذه الحملة الشعواء على البصل المخل بالعقول ساتخذها تخلصاً للمرور من باب الحضارة المادية الى باب الحضارة الروحية . لو صدقنا ابن حوقل لكان يجب علينا ان نعتقد ان هذه الحياة كانت في اسفل الادراك يوم زار رحالتنا صقلية . لكن ابن حوقل ، رغم كفه عن اكل البصل ، كان ، ولا شك فيه ، مصاباً باختلال توازن امزجته وبتغلب السوداء عليه لاننا نجده دائم التذمر ، حديد اللسان ، مرير الكلام ، لوّاماً لكل احد ونقادًا لكل شيء .

يفتتح سلسلة انتقاداته بقوله ان دين الصقليين كان فاسدًا لا يصلّون ولا يتطهّرون ولا يزكون ولا يحجون ، وان مساجدهم العديدة انما بنوها لاجل الفخفخة لافتخار كل احد بان يكون له مسجد على حدته ، وان رباطاتهم الكثيرة مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق بل بالقوّادين .

وجد في بالرمو ثلاثمائة معلم يقومون بالتعليم الابتدائي وهم يتمتعون بثقة الاهالي وتقديرهم وتوقيرهم . وبدلًا من ان يسر بذلك سفّه المعلمين ومكرميهم ، لان المعلّم والحماقة عنده شيء واحد ، جرياً وراء المثل المشهور .

اما القضاة والعلماء ، فانهم في رأيه اناس لا يميّزون بين المرفوع والمنصوب ولم يحترفوا العلم الا للقعود عن الجهاد . اجل اننا نجيز ان تكون صقلية حين زارها ابن حوقل لم تخلُ من نصيبها من الخالعين والفاسدين والبطالين والجبناء الذين لا يخلو منهم مكان ولا زمان ، ونحن مستعدون للايمان بان بعض معلميها كانوا يلحنون . ولكن طبقات الفقهاء والمحدثين والمتصوفين والنحويين والادباء الصقليين الموجودة في ايدينا واشعار امثال ابن حمديس تمنعنا عن تصديق المائة في المائة من كلام عدوّ البصل هذا الساعي لتبصيل الصقليين ، المعروفين



قبر الامبراطور فريدريك الثاني الصوابي ، ملك صقلية ، في پالرمو

ومن اشغالهن البيتية الردن يجرينه بآلة تسمى (raddéna) يعني ردّانه او (màrdana) يعني مِردن ، ويدققن ما يدققن بواسطة اداة يقلن لها (matàccu) او (mataffu) تحريف مدق .

هنا يمكنني ان اذكر لكم الفاظاً عربية كثيرة لا تزال تتداول على السن الصقليين . ولكني اكتفي بالقليل منها مقابلة للمحاضرة الجميلة التي اتحف بها الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، رئيس هذه الجامعة ، المعهد الثقافي الايطالي وسرد فيها الالفاظ الايطالية الواردة في اللغة الدارجة اللبنانية :

catusu	قادوس	gasèna	خزانة
cassàra	خسارة	fucuruna	فكرونة (سلحفاة عند المغاربة)
careri	حريري	carara	حرارة
dica	ضيقة	canciáru	خنجر
sciàbbica	شبكية	filano	فلان
tarsia	ترصيع		

واما خريطة صقلية فانها مشحونة بالاسماء العربية :

Marsala	مرسى علي	Alcamo	علقمة
Misilmeri	منزل الامير	Caltagirone	قلعة الجنون
Trabia	تربيع	Dittaino	وادي الطين
Caltabellotta	قلعة البلوطة	Alga	علقه
Catalfano	قلعة الفانوس	Mezzoiùso	منزل يوسف
Favara	فواره	Buscemi	قلعة ابو شامه
Marzameni	مرسى الحمام	Caltavuturo	قلعة ابي ثور
Sciacca	شاقه	Canicatti	خان القطاع

فزوروا صقلية لن تكونوا فيها غرباء .

M. Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2a ed. publicata con note a cura di C.A. Nallino, vol. III, Catania, 1939.

A. Steiger, *Contribución a la fonética del hispano-árabe y de los arabismo en el ibero-romanico y el siciliano*, Madrid, 1932.

E. Levi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, Tome III, Paris, Maisonneuve, 1953.

J. H. Kramer, *Opus geographicum auctore Ibn Hawqal. Liber imaginis terrae* صورة الأرض Leyden (Brill) 1938-9.

W. Wright, *The Travels of Ibn Jubair*, Leyden, 1852.

G. Schiapparelli, *Ibn Ğubair (Ibn Giobeir), Viaggio in Spagna, Sicilia, Siria, Palestina, Arabia, Egitto companti nel seculo* XII, Prima traduzione... Roma (Caza Editione Italiana), 1906.

E. Garcia Gomez, *Sobre agricoltura arabigo-andalusa*: «*Al-Andalus*», X, 1945.

٥

الحضارة الصقلية العربية

٢

العلم والادب

المراجع ان تأريخ العلم والادب في صقلية في زمان الحكم العربيّ (كتاريخ الحوادث الحربية والسياسية)، لا يؤخذ من مراجع معاصرة، بل من مصادر متأخرة الزمان لُخصت فيها الآثار الاصلية. فما يُرثى له ضياع مؤلفات علي بن القطّاع، الذي وُلد في صقلية في سنة ١٠٤١ م وغادر الجزيرة بعد وقوعها في ايدي النرمان، ومات في سنة ١١٢١ م في مصر، حيث كان الوزير الافضل اكرمه وقرّبه. وقف هذا الاديب نفسه للتنويه بمجد صقلية فألف كتاباً في تاريخ جزيرته المحبوبة، وآخر ضمّنه مختارات مائة وسبعين شاعرًا صقليًا، تحت عنوان « الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة ». كذلك ألف ابن بشرون الازدي الصقلي، من ادباء النصف الثاني للقرن الثاني عشر للمسيح كتاباً وسمه بـ« المختارات في النظم والنثر لافضل اهل العصر » اورد فيه منظومات عدة صقليين. وفعل عين ذلك ابو الصلت امية، المولود في دانية في سنة ١٠٦٧ والمتوفى في المهدية، في رسالة في اهل العصر، ومؤلف مهدوي مجهول الاسم عاش في زمان ابن القطّاع.

وكل هذه المختارات لم تصل الينا، وانما بقي لنا ما استخرجه منها عماد الدين الاصفهاني، عالم عاش من سنة ١١٢٥ الى سنة ١٢٠١، وكان من مقربي السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين الايوبي، في كتابه المعنون بـ« خريدة القصر وجريدة اهل النصر »[1] لم ينشر هذا الكتاب لحدّ الان باسره، ولكن آماري نشر في « مكتبته العربية — الصقلية » جزءه

(١) M. Amari, *Biblioteca arabo-sicula*, Torino, 1880.

المتعلق بالشعر الصقلي . واشعار صقلية اخرى استخرجها العالم المصري الصيرفي (المتوفى في سنة ٥٤٣ هجرية) من مجموعة ابن القطاع ، نشرها وترجمها المستشرق الايطالي الاب اغناطيوس دي متيو (Ignazio di Matteo) . وفي كتاب « مرآة الزمان » لابن الجوزي مستخرجات اخرى .

اما اخبار العلماء فقد اضطر آماري الى معاناة مشقة كبيرة لالتقاطها من كتب الطبقات والفهرست والتراجم الكبرى ، مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، وكشف الظنون لحاجي خليفه ، ومن كل ما وقع في يديه من الاثار ، وكثيرًا ما تصفح مجلدًا ضخماً او اكلّ عينيه على مخطوطة بالية ، ولم يعثر فيها الا على اسمين او ثلاثة . هذا هو نصيب الفاحص العلمي : سهور دائمة لاستيقاظ الاخبار النائمة ، رحلات لا نهاية لها لتلقي الدروس من الرسوم الدارسة ، نتائج ضئيلة بعد الوف الجهود ، شرارة واحدة تلمع بعد تكرار قدح الزنود . فتحمّل آماري هذا التعب بمقدار لا نكاد نتصوره اليوم ، والاثار مطبوعة في ايدينا ، مزودة بفهارس تُسهّل علينا مراجعتها ، وكنوز المخطوطات لها مفاتيح في كتب تصفها ادق الوصف . نعم ، تحمّل هذا العناء ولم يستثقله ، بل استهانه واستحلاه ، مدفوعاً بحبه لوطنه صقلية . ولم يقتصر على استنطاق المؤلفات التي كانت تَمدُّ ديباجتها بشفاء غليله ، لا بل نبش في آثار ليست فيها ادنى إشارة الى انها تحتوي اخبارًا تخصّ صقلية ؛ وكل ما عثر عليه جمعه ونشره في ثلاثة مجلدات وسمها بـ« المكتبة العربية الصقلية » (Biblioteca Arabo-Sicula) واتبعها فيما بعد بترجمة الى الايطالية .

ثم اخذ الحجارة والاحصية المضمونة في هذه المجموعة ، والتي وجدها في الحوليّات البيزنطية واللاتينية ، ونحتها وصقلها ورتبها والحمها بملاط انتقاده ، وشيد بها ذلك البنيان المرصوص الجليل المنظر الذي هو كتابه «تاريخ مسلمي صقلية» المتألف من ٥ اجزاء في ٢٣٤٥ صحيفة . هو اثر خالد ، لا يستغني عنه كل من أراد الوقوف على اخبار العرب ، من يوم وجهوا انظارهم الى درة جزر البحر المتوسط الى يوم جلا عنها آخر من جلا — ، وقوفاً يجمع بين معرفة الجزئيّات ، وبين تلك المعلومات الجامعة ، تلك النظرات العامة ، تلك الافكار الكلية ، التي قلّما تجدها في آثار المؤرخين العربيين ، الساعين وراء الحوادث بغير التفات الى روابطها وعللها العميقة ، والمعتنين بالافراد دون المجتمعات .

لهذا ، لا أراني خارجاً عن موضوعي اذا جعلت آماري مقدماً لصفوف الادباء والعلماء الذين سأذكرهم . ألم يكن هو دليلنا في طول طريقنا ؟

ولد ميشال آماري في بالرمو في اليوم السابع من تموز سنة ١٨٠٦ . كانت ايطالية وقتئذٍ تفور فيها تلك الخمائر التي كان الانقلاب الفرنسي قد بذرها في اوربة باسرها ، خمائر الحرية والاستقلال . وحيث كان ملوك البوربون (Bourbons) الجامعون لتاج نابولي وتاج بالرمو، يسيئون الحكم في صقلية ، رأى الشاب النبيل النفس النجاة في فصل صقلية من نابولي ، وجعلها دولة على حدتها ، في إطار « فيدرسية » تشمل كل الدويلات الايطالية . وعبر ، بصورة شفافة فوق اللزوم ، عن هذا الفكر في كتاب تاريخي عنوانه «صلاة الستَّار الصقلية» (I Vespri Siciliani) ذكر فيه كيف ثار شعب بالرمو على جنود دولة انجو (Anjou) الفرنسية على اثر اهانتهم لمرأة كانت تذهب الى الكنيسة مع عريسها لاجل اقامة صلاة الستار اي صلاة العصر ، وكيف ذبح الثوار كل الفرنسيين الموجودين في المدينة وكيف عمت الثورة الجزيرة وافضت الى فكها من نير الانجويين الجالسين في نابولي والى جعلها دولة مستقلة .

بالطبع لم يعجب هذا الكتاب الدولة البربونية ، فدعت مؤلفه الى الاعتذار ، فرأى آماري الفرار الى باريس احوط . كان ذلك في سنة ١٨٤٢ وعمره ست وثلاثون سنة . وفي عاصمة فرنسة عزم آماري على البحث عن مقدمات ثورة صلاة الستَّار ، فتقهقرت به تحرياته الى العهد العربي ، وهنا راى ان لا مندوحة له من تعلم اللغة العربية . فاكبَّ عليها بكل قواه وتغلَّب على صعوباتها وتملَّكها الى درجة حملت الحكومة الفرنسية على تعيينه حافظاً للمخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس ، واكسبته مكانة في اندية المستشرقين ، وادت الجمعية الاستشراقية الالمانية على تحمل مصاريف نشر « المكتبة العربية الصقلية » . ولم يقتصر على الابحاث التاريخية ، بل ترجم كتاب « سلوان المطاع » لابن ظفر الصقلي ، ونشر الابواب الدائرة على صقلية من كتاب ابن حوقل .

وبينما كان يقوم بتحرير كتابه في مسلمي صقلية وبهـذا النشاط العلمي المتنوع ، كان يشترك اشتراكاً فعَّالًا في الحركات السياسية . من ذلك انه كان وزيرًا في الحكومة الانقلابية التي تشكلت في باريس حين ثار اهالي صقلية على البوربون في سنة ١٨٤٨ وانـه عاون كافور (Cavour) على ضم صقلية الى المملكة الايطالية في سنة ١٨٦٠ ، مضحياً بفكرة الاستقلال والفيدرسية على مذبح الوحدة الايطالية . وغادر فرنسا نهائيًا في هذه السنة واستقرَّ في فيرنتسي (Firenze, Florence) حيث عُيِّن مدرّساً في معهد الدروس العليـا ، ولم يغادر هذا المنبر الى سنة ١٨٧٣ ، الا لتقلد عضوية مجلس الشيوخ ووزارة المعارف من اواخر سنة ١٨٦٢ الى شهر ايلول سنة ١٨٦٤ ، واهتم في هاتين الوظيفتين وفي اخرى اسندت اليه باحياء الابحاث

المتعلقة بوشائج الصقليين والجمهوريات البحرية الايطالية مع الدول العربية ، ونشر الوثائق العربية المخزونة في مكتبة فيرنتسي (١٨٦٣—١٨٦٧) ، والكتابات الحجرية العربية الموجودة في صقلية (١٨٧٨—١٨٨٠) ورغّب تلميذه جلستينو سكياپارلي (Celestino Schiapparelli) في نشر ديوان ابن حمديس وكتاب رجار للادريسي ، والبحاثة لاغومينا (Lagumina) في درس السكة العربية الصقلية ، الى ان فاجأه الموت في اليوم السادس عشر من تموز سنة ١٨٨٩ .

كان من الواجب علينا احياء ذكرى هذا الرجل العظيم الجامع بين فضيلتي العلم والعمل ، وبين حنينه الى وطنه وحبه للعرب .



فلنرجع الى اصل الموضوع :

النثر

كان العلم الذي اقبل عليه الصقليون دون سائر العلوم في عهد الاغالبة الفقه ، كأنّ غازي صقلية القاضي اسد بن الفرات ترك فيهم روحه كما ترك لهم كتابه « المسائل الاسدية » الذي هو اساس الفقه المالكي بعد المدوّنة لاحتوائه تعاليم ابن قاسم ، اول تلامذة الامام مالك .

وزاد اهاليَ الجزيرة عنايةً بالفقه ورودُ تلامذة صحنون ، جامع المدوّنة ، منهم يحيي بن عمر ابن يوسف الاندلسي ، وابو سعيد لقمان بن يوسف الغساني ، وابو عمرىْ ميمون بن عمرىْ ، الذي ضرب المثل بعفته ، لانه سافر من سوسة لتولي القضاء في بالرمو ، وهو لا يحمل معه من الملابس الا الجبة والقفطان اللذين على جسمه ، ومن العفش الا حقيبة ملأى بالكتب ، ومن الخدَمة الا جارية سوداء . ولما رجع من الجزيرة بعد سنين جاء الناس لاستقباله ، واذا بجبته وقفطانه هما ذلك القفطان وتلك الجبة ، باليَيْن ، وحقيبته هي حقيبته القديمة ، ممزقة ، والجدة الوحيدة ان الجارية عادت مزدانة بصفة رسمية ، اذ كان سيدها قد اضاف الى واجباتها البيتية وظيفة الحجابة في محكمته ، وقد صارت هي ايضاً مضرب المثل لانها ما كانت تدع الناس يطيلون الانتظار امام باب القاضي .

حَفَّتْ بالفقه علوم القرآن والحديث ، مع قلة اقبال الناس على علم الكلام . اما العلوم العصرية ، فمن الاكيد انها لم تكن مفقودة بالمرة ، ولاسيما الطب ، بدليل ان احد التراجمة الذين تعاونوا على نقل كتاب العقاقير لديوسقورس في قرطبة في زمان الخليفة عبد الرحمن الناصر كان صقلياً اسمه عبدالله يحسن اليونانية والعربية والصيدلة . ولكن باقي العلماء الذين اعتنوا بهذه العلوم لم يطر لهم صيت .

كذلك من المحال ان تكون صقلية عدمت الشعراء في عهد الاغالبة المعروفين بحب الشعر وبقوله ، ولكنهم لم يتجاوزوا حدّ شهرة محلية وموقتة . وكان على راس طبقة النحاة المغربيين في هذا العهد صقلي اسمه محمد ابن خراسان .

واذا كان العهد الاغلبي اجبرنا على التقاط الاسماء لقطاً من مآخذ بخيلة بالافادات ، فاننا سنفعل عكس ذلك ونسقط اسماء كثيرة عند تكلمنا عن عصر الكلبية ، عصر كان غنياً بالعلماء والادباء لقلة حروبه ، واستتباب امنه ، ولانعكاس انوار الثقافة الفاطمية في الجزيرة .

كثر في هذا الزمان القراء والمفسرون ، وفي مقدمتهم ابن الفحام السرقوسي (اي السيراكوزي) الذي اشتهر بكتبه في القراءات السبع وفي التجويد واقبل عليه الطلبة في الشرق بعد ان غادر وطنه على اثر دخول النرمان ، وتلميذه عثمان السرقوسي ، وابو طاهر اسماعيل ابن خلف بن سعد بن عمران ، صاحب تصنيف ضخم الحجم في اعراب القرآن تناقلته ايدي اجيال كثيرة من الطلبة في المغرب والمشرق . حمل هذا العلامة العلم الصقلي الى الاندلس عندما داست اقدام النرمان تراب جزيرته .

ولم يكن عدد المحدثين والمتفقهين اقل من عدد القراء والمفسرين . ولكني لن اذكر اسماء اشخاص ومصنفات لا تهم الا المتخصصين ، ما خلا اسماً واحداً لا يجوز السكوت عنه ، لانه لا يزال متداولاً على ألسنة كل الفقهاء المغربيين . كان ابو عبدالله محمد التميمي المازري — اي المولود في مزارة (Mazara) (٥٣٦ هـ.) نبراساً في الحديث والفقه المالكي ، وانتشر كتابه « المعلم بفوائد ابي مسلم » وشرحاه على برهان امام الحرمين وتلقين القاضي محمد عبد الوهاب في المغرب باسره ، ولا تزال اقواله معمولاً بها عند كل المغاربة لأنهم يقرأون الفقه المالكي من مختصر السيد خليل حيث المازري معدود من الثقاة الاكبرين .

لم يرضَ المازري بالبقاء في صقلية عندما جاء النرمان وهاجر الى المهدية حيث تشرف ، على ما يقال ، بالقاء دروسه على محمد بن تومرت مؤسس حركة الموحّدة (Almohades) ، ولكنه طمن وجدانات مواطنيه الذين خضعوا للنرمان بفتواه المشهورة التي اباح بها قبول القضاء وسائر الوظائف الخادمة لمصلحة المؤمنين من ايدي الحكام الغير المسلمين .

وشاركه معاصره ابن يونس الصقلي شهرته وعلوّ مكانه في مختصر السيد خليل .

ولنا صقلي آخر ذاع في العالم الاسلامي باسره صيته في شخص سعيد الكركنتي . جاب هذا المتصوف الكبير ممالك المشرق داعياً الناس الى ترك الدنيا ، وطلب القربى ، الى ان توفاه الله في نيسابور في سنة ٩٨٣ . واقتفى اثاره السمنطاري المولود في قرية سمنطاره

الصقلية (Samanteria) كان هو ايضاً جوّابة آفاق ، يبشر بوصال لا بعده من فراق ، والف في هذا الموضوع كتاباً عنوانه « دليل القاصرين » جذب اليه قلوب المتصوفين بعلو معانيه ومبانيه .

وبينا كان السمنطاري يصل اطراف صقلية باقاصي خراسان لبذر بذور العرفان ، كان الكتاني المازري ينتقل من بالرمو الى بغداد ، ومن هنا الى غزنة ، فالهند ، لا لأداء رسالة دينية بل لنشر دعوة النحو والالتذاذ بما يلتذ به كافة النحاة ، من تلحين المتكلمين بالعربية عامة ، وزملائه خاصة . كان ، رحمه الله ، لا يدخل مدرسة — اما في العراق ، او في بلاد الافغان ، او في السند والهند — ، الا ويقاطع المدرّس « باخطأت في كذا وكذا » . كان عدد النحاة وافرًا في صقلية في ذلك الزمن ، ولكن مؤلفاتهم يابسة ، فلن اذكرها ، خوفًا من سريان جفافها الى محاضرتي .

اما المؤرخون ، فلا ازيد على ما قلته في مستهل كلامي ، حين خصصت بالذكر ابن القطاع . وفيما يخص العلوم العقلية ، فقد ذكرت لكم اكابر ممثليها وفي طليعتهم العالم الجغرافي الادريسي ، في درسي الثالث ، الدائر على ثقافة العهد النرماني والعهد السوابي ، اللذين بلغت فيهما هذه العلوم الذروة .

ان هذا الاختصار يفسح لنا المجال للتكلم عن الادب والشعر . اكبر النثار الصقليين هو ابن ظفر ، المولود في صقلية والمتوفى سنة ١١٦٩ في الحماة . لا اطيل فيه الكلام ، لان كتابه « سلوان المطاع في عدوان الاتباع » الناسج على منوال كتاب كليلة ودمنة جد معروف في المشرق حيث طبع في استانبول (١٢٧٨ هـ.) وفي تونس (١٢٧٩ هـ.) وفي بيروت (١٨٨٣ م. = ١٣٠٠) . اهدى ابن ظفر هذا الكتاب الى القائد ابي القاسم ابن حمود القرشي، الذي كان اكبر وجهاء المسلمين الصقليين في عهد الملك غليام الثاني النرماني .

هذا واسرع الى النظم .



الشعر

ازدهر الشعر كل الازدهار في زمن الامراء الكلبيين ، الذين كانوا يقولونه انفسهم . وفي ايدينا من بقاياه مقطوعات غير قليلة ، كما ذكرته ، وديوان كامل . بالطبع نحصر كلامنا في اشهر هؤلاء الشعراء .

برع الطوبيّ في النثر والنظم . ومدح ، وتغزل ، وهجا ، ورثى باسلوب فني فتح له ابواب دار المعز بن باديس امير المهدية . وللكاتب ابن الصباغ مقاطيع ترينا قوته في التعبير

عن بغضه ، الذي تناول الكلبيين والبزنطيين على السواء ، بدون ان تهدينا الى سائر نواحي ذهنيته . وكسب ابو العرب الصقلي شهرة ادت المعتمد بن عبّاد الى استقدامه الى اسبانية بعد دخول النرمان في بالرمو، واورثه لقب « امام شعراء عصره » في كتاب لبعض الادباء . وساواه في الشهرة ابن الطازي ، طبيب كان يحسن الوصف الشعري احسانه للوصفات الطبية ، وكان يطعن خصومه باهجئة احدّ من مشاريط الجراحين . وفي اسبانية في الاسكوريال (Escurial) نسخة حفظت لنا اشعار البَلّانوبيّ ، المسمى هكذا نسبة الى مدينة (Villanova) الصقلية ، ولكنها لم تطبع بعد ، وان كان المستشرق الايطالي سكياپارلّي (Schiapparelli) قد حضّر نشرها وترجمتها . وعلى كل حال فانها لا تتضمن شيئاً يهمنا أو يدلّ على قدرة تفوق العادة.

وبخلاف ذلك في شعر عبد الرحمن الأَطرابَنشيّ (اي المولود في (Tràpani) ما يستلفت انظارنا ، لانه وصف قصر « الفوارة » الذي بناه الملك رجار الثاني في قرب بالرمو ، بابيات نرى فيها صقلية ماثلة بين ايدينا في كل جمال طبيعتها . قال :

فوّارةَ البحرين ، جمّعتِ المنى: عيش يطيب ، ومنظر يُستعظَم
قُسمت مياهكِ في جداول تسعة يا حبذا جرياها المتقسم
في ملتقى بحريك مترك الهوى وعلى خليجيك الغرام مخيم
لله بحر النخلتين وما حوى الـ بحر المشيد به المقام الاعظم
وكأنّ ماء الفرغين وصفوه درّ مذابٌ والبسيطة عندم
وكأن اغصان الرياض تطاولت ترنو الى سمك المياه وتبسم
والحوت يسبح في صفاء مياهها والطير بين رياضها تترنم
وكأن نارنج الجزيرة اذ زها نار على قُضب الزبرجد تضرم
وكأنما الليمون صفرة عاشق قد بات من ألم النوى يتألم
والنخلتان كعاشقين استخلصا حذَر العدى حصناً منيعاً منهم
يا نخاتي بحرَي بَلَرْمَ سقيتما صوب الحيا بتواصل لا يصرم
هنّيتما اس الزمان ونلتما كل الاماني والحوادث نوّم

والبحران هنا بحر خليج بالرمو والحوض المتكون من التقاء مياه فوارتين : الفوارة الكبرى المعروفة بالبحر الحلو (Mare dolce) والفوارة الصغرى .

وقال الشاعر عبد الرحمن البُوثيريّ (من بوثيرة (Butera) الصقلي في مبتدأ قصيدة وصف فيها مصيف الملك رجار في منّاني (Minnerno) :

أدر العقيق المسجديّهْ وصلِ اصطباحك بالعشيّه
واشرب على وقع المثا في والاغاني المبديه

ما عيشــة تصفو سوى بــذرى صقليــة هنيه
في دولة اربت عـلى دول المـلوك القيصريه

٤ ــ الشاعر ابن حمديس والشاعر الصقلي الوحيد الذي في ايدينا ديوانه بتمامه مطبوعاً طبعاً انيقاً بفضل المستشرق الايطالي جلستينو سكياپارلّي، هو عبد الجبار ابن محمد بن حمديس الازدي السرقوسي .

ان بطاقة الزيارة التي بها قدّم ابن حمديس نفسه لشبان المدارس اللبنانية لاول مرة قُطَيعته التي نشرها الاب لويس شيخو في الجزء الثالث (عدد ١٩٦) من مجاني الادب :

ذَكَرْتُ صِقِلِّيَّةَ والأسى يجــدّد للنفس تذكارَها
فان كُنْتُ أُخرِجتُ من جنَّةٍ فاني أحدّثُ اخبارَها
ولولا ملوحة مـاء البكاء حسِبْتُ دموعي انهارها

حقّاً ان هذه البطاقة لوافية بمهمة التعريف، فانهــا تسمعنا النغمة السائدة في شعر ابن حمديس وهي الشوق الى الوطن، وتبدي لنا معاً طبيعة فنه : صدقاً في العواطف ينعكس في بساطة البيت الاول، الذي هو مجرد إخبار بواقع، وفي البيت الثاني، حيث تشبيه الوطن بالجنة عاديّ بل عاميّ، وبجانب هــذا الصدق الداخلي بعض التصنع في التعبير، يتجلى في البيت الثالث، حيث استدلال الشاعر بملوحة دموعه على عدم كونها انهار صقلية، وان كانت دائمة السيلان مثلها، يبرّد تأثيره حرارة شعوره، مع بقــاء فضل الاشارة اللطيفة الى احدى جمالات صقلية وهي مجاري مياهها العذبة .

وبطاقة الزيارة الثانية في المجاني القديمة وصف الشاعر للدار التي بناها الامير منصور بن اعلى في بجاية ولبركتها، قال :

أعْمِرْ بقصر الملك، ناديك الذي اضحى بمجــدك بيُتُــه معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره اعمى، لعاد الى المقــام بصيرا
واشتُقّ من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحــدث بالعظام نشورا
نُسي الصبيح من الفصيح بذكره وسما ففــاقَ خورنقاً وسديرا

فماذا نجد هنا ؟ مبالغات مبتذلة، اذ كلّ قصر بناه سلطان يصفه كل شعر عربي بانــه فاق خورنقاً وسديراً، ولكن اناقة العبارة تجذبنا خصوصاً وانها حاصلة بابسط الوسائط، بدون استعمال الالفاظ الميتة التي تفتخر بها عدة شعراء . ثم نواصل القراءة ونجد شيئاً يفوق الاناقة اللفظية، وهو تلطف الشاعر في تلميحاته التي تقوم مقام الوصف المفصّل، علماً منه بان الوصف أليق بتطوّفي السيّاحين منه بالشعراء الموهوبين .

ومحصب بالدرّ ، تحسب تربه مسكاً ، تضوّع نشره وعبيره

فبذكر اريج المسك والعبير يستغني ابن حمديس عن ذكر الازهار المصورة في فسيفساء ارضيات قصر المنصور ، كما وانه يصف في آن واحد دويّ المياه المنصبة في البركة وحيوية تماثيل الاسد الواقعة على ضفافها بمجرد تشبيه الخرير بالزئير :

وضراغم سَكَنَتْ عرين رئاسة ترکت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضار جسومها واذاب في افواهها البلورا

ويبرز هذه الحيوية اتمّ الابراز بقوله :

أُسد كأن سكونها متحرك في النفس ، لو وَجَدَتْ هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما اقعت على ادبارها لتثورا

فقولوا ما تشاؤونه في الجناس المعنوي والجناس اللفظي اللذين يعدان اليوم من اسلحة البلاغة القديمة المتصدئة : اني اظن انّ الجناس له حقّ البقاء ، متى كان معبرًا ، وهو معبر للغاية في هذا السكون المتحرّك .

كذلك النضار – اي الفضة – الوارد في البيت الذي قبل هذين البيتين استعارة عن بيوضة الرخام هو غير الفضة التي يذكرها الشعراء الفارسيون الى غاية الاملال ، لوصف بياض صدور النساء : فانه يفيدنا بطريق الايماء بياضاً رقراقاً ، بياض رخام ، مبلول بالماء ، ويزيد هذا اللمعان ، وذوبان البلور حركة منظر كلّه حركةٌ . ان في هذه الابيات الابداع الصحيح الغير المطلوب من البعد ، المجدد للمعاني المبتذلة بكشفه عن دقائقها المكنونة.

فأشعار ابن حمديس لوحاتٌ لا يعتني فيها الرسام بتبديل المواضيع قدر ما يعتني باتقان صنعه ، وليس هذا الاتقان عنده الضبط في مدّ خطوط الصور ، بل تأثيره مبني على اللون ، وليس على الالوان الصارخة ، بل على التدرُّجات اللونية الخفيفة اللطيفة ، المتصاعدة شيئاً فشيئاً، الى بقعة لماعة ، يتلخص فيها المصوّر . ووراء اللوحة موسيقى دائمة الالحان ، وفي طيّ الانطباعات البصرية والسمعية انطباعات رقيقة تلاطف باقي الحواس .

وقد ادرك مدير لجنة « المجاني الحديثة » ، الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، ومؤلف جزئها الخامس ، الاستاذ كرم البستاني ، اللذين فتحا لابن حمديس باب هذه المجموعة على مصراعيه (ص ٦٥–٧٨) ، حقيقة فن الشاعر الصقلي عندما اعارا كل قطعة اورداها عنواناً يشير الى المركز الذي تنبعث منه اشعة الشعر .

خذوا القطعة التي وسمها كرم البستاني «بكيمياء الشمس» مثلاً :

ولابسٍ نُقُبَ الاغراضِ جوهرُهُ   له انسياب حُبابٍ ، رقشُهُ الحُبَبُ
اذا الصَّبا زَلِقتْ فيه سنابكُها   حسبته مُنصُلاً في متنه شُطبُ
وردنه ونجومُ الجوّ مائلةٌ   كما تدحرجَ دُرٌّ ما له ثُقَبُ
ومغرِبٌ طمَنتْهُ غيرَ نابيةٍ   أسِنَّةٌ هيَ ان حقَّقتها شُهُبُ
ومشرقٌ كيمياء الشمس في يدِهِ   ففضَّة الماء من القائها ، ذهبُ

ان الموضوع وصف نهر ، موصوف مألوف . وتشبيه النهر بحُبابٍ ، اي بحيّة وبمُنصُلٍ ، اي بسيف ، يرد في شعر ابن حمديس غير مرة ونكاد نجده عند جميع شعراء العرب . وعين ذلك يقال في تشبيه النجوم بالدرّ ، وفي الجناس اللفظي بين الحُباب والحُبَب ، ولكن كيمياء الشمس هي النقطة التي تتجه اليها كل هذه التشابيه والاستعارات المبتذلة حياةً جديدةً .

مهما كان فاشدّ ابياته وقعاً في قلوبنا هي التي قالها مشتاقاً الى صقلية . غادر ابن حمديس مسقط رأسه سرقوسة (سيراكوزا) وداره في نوطس (نوتو) وعمره نحو خمس وعشرين سنة فاراً من وجوه الزمان ، وحفظ لها ذكراً لم يمّحِ على ممر الايام والاعوام .

وراءك ، يا بحرُ ، لي جنّةٌ   لبستُ النعيم بها لا الشقاء
اذا حاولتُ منها صباحاً   تعرضتَ من دونها لي مساء(١)

كان المهاجر قد لحق بالمعتمد بن عبّاد ، صاحب اشبيلية في بلاد الاندلس ، ووجد منه حفاوة واكراماً . ولكن دار الغربة ليست كالوطن .

ولله ارض ان عدِمْتُمْ هواءها   فاهواؤكم في الارض منثورة النظمِ
وعزُّكم يفضي الى الذل والنوى   من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فان بلاد الناس ليست بلادكم   ولا جارها والحلم كالجار والحلم
أعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم   وكم خالة جداء لم تُغنِ عن امٍّ

بعد سقوط المعتمد انتقل ابن حمديس الى افريقية الشمالية ، وعاش في البجاية والمهدية وهما مدينتان لا تقلان روعةً عن سيراكوزا ونوتو . ولكن اين صحاري افريقية الشمالية من رياض الجنة التي كان قد أُخرج منها ؟ لذلك قال وهو يتذكر وطنه عند استماعه الى غناء احدى الحسان :

---

١) كذا مع اضطراب الوزن في الشطر الأول .

واذكرتني عصرَ الشباب الذي مضى ... لبردَيْ فيه بالتنعُّم إسبالُ(١)
ونضرة عيش كان همّي جامدًا ... به حيث نَبْري في الزجاجة سيّال
ودارٍ غدَونا عن حِماها ولم نرُحْ ... ونحن اليها بالعزائم قُفّالُ
بها كنت طفلًا في ترعرع شرفتي ... الاعب ايام الصِّبا وهي اطفال
أبَعْدَ أنيسات الهوى اقطع الفلا ... ويسنح لي في وحشها الجأب والرأل(٢)
ومن بعد ورد في مقيلي وسوسن ... اقيل ومشمومي بها الطلح والضال(٣)
واقسم ما هوّمتُ الّا وزارني ... على بُعْده الوادي الذي عنده الآل(٤)
بارض بنات العز فيها فوارس ... تصول المنايا في الحروب اذا صالوا
الا حبّذا تلك الديارُ أواهلا ... ويا حبذا منها طلول واطلال
ويا حبذا منها تبسُّم نفحةٍ ... تؤرّجها اسحار البنا وآصال
ويا حبذا الاحياء منهم وحبذا ... مفاصل منهم في القبور وأوصال

تلك الدار التي قضى فيها ايام طفولته هي دار في نوطس كانت ترجع الى خاطره كل حين :

الا في ضمان الله دار بنوطس ... ودرَّتْ عليها مُعْصِراتُ الهواضبِ
أمثّلها في خاطري كل ساعة ... وأمري لها قطر الدموع السواكب(٥)
احنّ حنين البنت للوطن الذي ... مغاني غوانيه اليه جواذبي
ومن يَكُ أبقى قلبه رسم منزل ... تمنّى له بالجسم أوبة آئب

ولماذا لم يعد الى صقلية ، وفي دار ملك النرمان ادباء وشعراء ينالون اكراماً واحساناً ؟

كلا . ان ابن حمديس كان يأبى العيش في ظل من يعدّهم اجانب وغصبةً .

ولو ان ارضي حرّة لأتيتُها ... بعزم يعُدُّ السيرَ ضربةَ لازبِ
ولكنّ ارضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في ايدي العلوج الغواصب

وكان يسرّ كلما فارق البخت جانب النرمان وصوّر هزيمة سفنهم في ديماس بالوان تذكرنا وصف اسخيلوس (Eschyle) لهزيمة الفرس في سلمينا (Salamine) :

---

(١) البردان : الصباح والمساء .
(٢) الجأب : الحمار الوحشي . الرأل : النعامة .
(٣) الضال : نبات شائك .
(٤) هوّمتُ : نِمتُ .
(٥) أمري : أستَدِرُّ .

تولت جنود الله بالريح حربهم — وليس لمخلوق على حربها صبرُ
فكم من فريق منهم اذ تفرقوا — له غرق في زخرة الموج او أسر
وظلّت سباع الماء وهي تنوشهم — فلا شِلْو منهم في ضريح ولا قبرُ

وكان يحثّ مواطنيه على الجهاد بالفاظ جديدة بترتيوس (Tyrtée) :

بني الثغر ، لستم في الوغى من بني امي — اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة — مصرخة في الروم بالثكل واليتم

يأخذون على ابن حمديس كون نصف ديوانه مؤلفاً من قصائد المدح ، الذي كان عادة شعراء العرب الجود به مملوءا بالتعابير الطنانة على كل من جاد عليهم بالدنانير الرنانة. ولكن العواطف التي اثبتناها له بما اوردناه من منظوماته تدلنا على ان شخصيته لم تكن كشخصية المتملقين المتطفلين العادين ، ويؤيد حكمنا هذا كونه والى المعتمد بن عباد ، في الضراء ، كما والاه في السراء ، اذ تبعه الى منفاه لما تغلّب عليه ابن تاشفين ونفاه الى أغمات وعزّاه باشعاره وبصداقته الوفية . — أضع التوكيد على ذلك ، لاننا معشر الغربيين ، كثيرًا ما لا ندرك فردية شعراء العرب المعنوية ونعدهم كلهم نظامين لا تخفق لهم قلوب ، يضعون عنايتهم كلها في الالفاظ ، كأن الشعر والشعور عندهم ضدان (رغم وحدة الاصل) ، كما تفوتنا فرديتهم الفنية فنعدّهم كلهم ينسجون على منوال واحد ، لعدم انتباهنا الى دقائق لا تدرك الا بعد تربية ادبية طويلة ترهف حواسنا . فلله در المستشرق الاندلسي غرسيا غومث (Garcia Gomez) الذي كشف لنا اسرار جمالات الشعر العربي الاندلسي وعلّمنا طريق تذوقه .

مات ابن حمديس في سنة ١١٣٣ في جزيرة مايورقة وكان عمره فوق الثمانين . ودفن بجانب زميله الاندلسي ابن اللبانة ، مادح المعتمد بن عبّاد وراثيه . فكأنّ جوار هذين اللحدين رمز الى تشابه الدورين اللذين لعبتهما اسبانية وصقلية في تاريخ الحضارة العربية .

راجع :
Michele Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 2a ed,
—, *Biblioteca arabo-sicula*, v. II.
Francesco Gabrieli, *Ibn Hamdis*, Mazara, 1948.
Celestino Schiapparelli, *Il Canzoniere di Ibn Hamdis*, Roma, 1897 (publié par l'Istituto Orientale di Napoli).

٦

الفن العربي في صقلية

المعمار في عهد الاغالبة والكلبيين

نبتدئ باهم الفنون واظهرهما للعيان ، المعمار بما فيه النحت والتصوير المتخذين لتزويق الابنية ونقول :

لم يترك الفن المعماري العربي في صقلية آثارًا كثيرة تنتمي الى زمان الحكم الاسلامي ، اي الى عهد الاغالبة والفواطم ونوّابهم الكلبيين . وهذه حالة معلومة تعمّ البلدان الاسلامية كافة فيما يخص ابنية الافراد . فكم من مدن في مشارق دار الاسلام ومغاربها مثل المؤرخون عدد سكانها بالنمل، لم يبق لالوف بيوتها الخاصة المؤلفة اثر، ولا في شكل انقاض . وهذا مفهوم ، لان دور العوام كانت مصنوعة من الطوب ومن غيره من المواد السريعة الزوال. واما مساكن الاغنياء والامراء والسلاطين انفسهم فانها لم تكن تبنى لكي تدوم وتورث . فكان الابناء يبادرون الى مغادرة البيوت التي مات فيها آباؤهم كما لو كانت مآوي العفاريت ، وكان كل سلطان يفتخر بان يكون له قصره الخاص وقل عاصمته الخاصة ، وكان يستفيد من اعمدة قصور اسلافه وحجارتها لبناء داره الجديدة ومدينته الحديثة. ثم كان يموت ويهلك معه ما كان عمّره .

وشمل في صقلية هذا النصيب معظم المباني العامة المبنية للمصلحة، بدون استثناء المساجد. ذلك ان بالرمو ، مثلا ، لم يبن فيها المسلمون جامعاً لصلاتهم ، بل استعملوا كنيسة المسيحيين الكبرى لهذا الغرض . ولما جاء النرمان أُجبروا على ردها لهم . واما المساجد الاخرى ، فان ابن حوقل، لما زار بالرمو ، وجد عددها يزيد على الثلاثمائة ، ولكنه وجد ايضاً ان سبب هذه الكثرة عادة غريبة ، تعلل لنا امّحاء آثارها . قال :

« لقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار ابي محمد عبد الواحد ابن حمد المعروف بالقفصي ، الفقيه الوثائقي ، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري ، ومنها شيء تجاه شيء وبينها عرض الطريق فقط . وسألت عن ذلك ، فأخبرت ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم ان يكون له مسجد مقصور عليه لا يشركه فيه غير اهله وحاشيته . وربما كان أخوان متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان وقد عمل كل واحد منها مسجداً لنفسه. »

هذا ، فلا شك ان هذا الانتفاخ البناني الناشئ من شدة « انتفاخ الرؤوس » سرعان ما كان يتلوه « الانفشاش » ، لانه طبيعي ان مساجد كهذه انما كانت تبنى لمدة لا تزيد على عمر انسان . لهذا البقية الباقية في بالرمو من كل هذه المساجد انقاض مسجد واحد بقرب كنيسة القديس يوحنا شفيع النسّاك ، اذا كانت بالفعل انقاض مسجد ، لان الامر فيه خلاف .

فلم تسلم من الهلاك الا بعض الحصون والقلاع ، وكان عددها عظيماً ، بسبب تطاول المدة التي ظلت فيها صقلية الاسلامية عرضة لهجومات البيزنطيين وغيرهم ، الا اننا لا نراها اليوم في شكلها الاصلي ، لان النرمان وخلفاءهم استعملوها هُمْ ايضاً فوسعوها وغيروا هيئتها . واكثرها قائم على صخور وعرة في وسط الجبال ، كما يرى من قلعة (Mussomeli) (الصورة١).

كان رسم الحصون العربية لا يختلف كثيراً عن رسم الحصون البيزنطية ، فانه عبارة عن مربع جوانبه اربعة اسوار ، في اطرافها واوساطها بروج احدها كان ارفع من الباقية وكان يُتخذ مرقباً ومأذنة . ويدور حول الاسوار في داخل الحصن ممرّ توصل اليه درج وينتأ منه — في حصون المسلمين — مسجد مقبب ، وتحت هذا الممرّ المساكن والمخازن الخ حول فناء في وسطه صهريج . والاسوار مقواة باسوار امامية وخنادق وغيرها من اسباب الدفاع .

ومتى كان الحصن مقرّاً ثابتاً لامير كان يستكمل بكل المرافق والمرافه والزينات المعدة لجعله مسكناً تتوفر فيه اسباب الراحة ومظاهر الفخر ، فيتضوء وجهه العبوس بابتسامة .

هذا شأن الاثر العربي الصرف الوحيد الذي تركه لنا العهد الكلبيّ وهو قصر الامير جعفر (٩٩٨ — ١٠١٩) في قرب بالرمو . وان طيقانه العمياء (arcades aveugles) اي الغير المفتوحة ، احدى مميزات الابنية الصقلية العربية . للاسف لم تبق لنا من هذا القصر الا الواجهة (الصورة ٢) . ولكنه كان ايام شبابه ايواناً فاخراً ، يطل على فناء ذي اروقة جليلة وعلى بحيرة تجتمع فيها مياه فوّارتين — الكبرى والصغرى — وينعكس فيها النخيل المغروس

على ضفافها . كان يقال لهذه البحيرة « البحر الحلو » (Mare dolce) وكانت تباري بجمالها بحر خليج بالرمو الازرق .

فهل لم تعرفوا في هذا الوصف ، ايها المستمعون ، المكان الذي خاطبه الشاعر عبد الرحمن الاطرابنشي بهذه الابيات :

فوّارة البحرين ، جَمَعت المنى عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك في جداول تسعة يا حبذا جرياضا المتقسم
في ملتقى بحريك معترك الهوى وعلى خليجَيْك الغرام مخيم

قال الاطرابنشي هذا الشعر يوم وسع الملك رجار الثاني النرماني قصر الامير جعفر ولواحقه . واتخذه متزهة (villa) يتمتع فيها بارغد الحياة ، يستظل تارة باشجاره ، ويتجول طوراً على متن فلك ، مع حريمه ، في بحيرته وبحره ، واشجار النخيل تتمرأى في المياه ، كأنها تنوي مداومة اظلاله براً وبحراً ، واشجار النارنج الخضراء ترسل اليه اشعة حمراء من ثمارها التي شبهها الاطرابنشي بـ « نار على قُضُب الزبرجد تُضرم » .

العهد النرماني ملك مسيحيّ يعيش عيشاً عربياً في قصر وروضة ورثها من العرب واكلها على الشكل العربي ! امامكم ، ايها المستمعون ، احدى غرائب التاريخ متجسمة في شخص : وهي ان الفن العربي الصقلي لم يبلغ اوجه الا بعد انقراض سيطرة العرب في الجزيرة .

وهذه القبيبة القائمة في وسط البساتين في بالرمو (صورة ٣) التي يسميها الصقليون (cubola) تصغيراً للفظة « قبة » ، هي عربية في كل اجزائها . ولكن بانيها احد ملوك النرمان .

وفي بالرمو قصر اسمه (La Cuba) يعني القبـة ، ينتسب الى العرب باسمه وجسمه ، اي بهيئته البنائية التي هي عين هيئة مباني امراء افريقية الشمالية كما دل عليه مارسيه (Marçais). واسم بانيه ، وهو الملك غليام الثاني ، مذكور في افريزه بحروف عربية (صورة ٤) .

وهذا الملك نفسه اكمل بنيان القصر الماثل امامكم في (الصورة ٥) الذي مؤسسه سلفه غليام الاول ويعرف باسم (La Ziza) تحريفاً للعزيزة .

وقد لا تعرفون لاول نظرة عروبة طرزه المعماري ، لان هيئته غيّرت تغييراً محسوساً عند الترميم في سنة ١٦٣٦ ولكن ختم عروبته مطبوع في عدة تفاصيل خارجية وفي بهوه الكبير ، حيث نرى رقوشاً عديدة عربية الشكل ، ومشكاة (طاقة) اعلاها مقرنس ، اي على شكل خلايا النحل ، وهذه ميزة من ميزات التنميق المعماري العربي . وينساب من المشكاة ماء

ينصب في بركة صغيرة أُعدّت له في مرمر الارضية ، جرياً عـلى عادةٍ شواهدها كثيرة في البلدان الاسلامية .

وكانت بركة ثانية توازيها خارج البناية ، في وسط جنينة تتزاحم فيها الازهـار واشجار الليمون والنارنج ، متسابقة الى تقديم عطورها ومظلاتها للملك وحاشيته .

وبنى الملك رجار الثاني لنفسه قصراً لا يزال الحي الذي قام فيه يُعرف بالـ (Càssaro) تحريفاً للقصر . ومما يستلفت الانظار ان هذا البناء كان يوجد فيه شادروان ذو اسد منحوتة مثل شادروان قصر الحمراء في اسبانية . وهو الشادروان الذي ذكره الشاعر الصقلي البثيري حين قال اثر الابيات التي اوردناها في محاضرتنا الخامسة :

وقصـور منصـوريّـة حط السرور بهـا المطيّه
أعجبْ بمنزلهـا الـذي قـد اكمل الرحمن ريّه
والملعب الزاهي عـلى كل المبـاني الهندسيـه
وريـاضه الانف الـتي عادت بهـا الدنيا زهيه
واسـود شـادروانـه تمجي ميـاهاً كوثريه
وكسا الربيـع ربوعهـا من حسنه حلـلًا بهيه
وغـدا وكـلل وجهها بمصبغـات جـوهريـه
وعطور انفـاس الصبا عنـد الصبيحة والعشيـه

فالمستخلص من هـذه القصيدة ومن وصف الرحالين والمؤرخين ان هذا القصر والابنية التي تليه كانت تشبه قصور امراء الاندلس وافريقية الشمالية في خطوطها الهندسية وزخارفها الفسيفسية ونقوشها العربية (arabesques) وبِرَكها وشادرواناتها وأُسدها المرمرية ، وتتمم التشابه تلك الرياض الكثيفة الاشجار والبساتين المتلوّنة الازهار التي كانت فيها الطبيعة تمدّ يدها الى البنّائين والنحّاتين للتعاون على خلق الجمال . ان هـذه المباني مستورة الان تحت المباني التي انضمت اليها في القرون اللاحقة . وانما حفظ لنا الدهر ، في منظار لا يبعد كثيراً عن منظره الاصليّ برجاً يعرف ببرج القديسة ننفا (Santa Ninfa) وبناء كان النرمان يسمونه « الجوهرية » وقاعة الملك رجار التي ترون فيهـا (الصورة ٦) الزخارف العربية والزخارف البيزنطية تتجانب وتتشابك في كمال الانسجام .

وعين هذا الانسجام نجده في عدة ابنية تحالف فيه الفن البيزنطي والفن النرماني والفن الايطالي والفن العربي واوجدت ذلك الفن القائم بنفسه الذي اصطلح العلماء على تسميته بالفن

الصقلي - العربي . ومن جملتها الكابلة البلاطية (Cappella Palatina) اي الكنيسة التي بناها الملك رجار الثاني في القصر المذكور . فسقف هذا المعبد مقرنس يشبه القفير او قلائد القطرات المتبلورة النازلة من سقوف المغاور الى اسفلها (stalactites) وفي طيّات هذا المقرنس الخشبي الخاطف للابصار بلمعان الوانه الثلاثة — الذهبي واللازوردي والابيض الناصع — كتابات عربية انيقة الخط . ورقوش طيقانه وجدرانه عربية ، وكذلك قوسه الكبير «المنفوخ» اي المصنوع على شكل نعل الفرس ، عربي الطراز ، بيد انّ الاعمدة وتيجانها كلاسيكية الاسلوب ، وتخطيط البنيان موضوع على شكل الصليب اللاتيني والفسيفسات بيزنطية مع ان الاشخاص المصورة فيها بعيدة عن الجمود والعبوس المألوفين في التصوير البيزنطي ، مرسومة بحيوية الصور اللاتينية وحلاوتها . اما المنبر القائم في اليسار ، فانه منتسب الى الفن الروماني الجديد (Art Roman) — (انظر الى الصورتين ٧ و ٨).

التصوير العربي الصقلي في عهد النرمان

وعروبة المقرنس لا ينادي بها شكله وكتاباته ورقوشه العربية فحسب ، بل هي صارخة من ملامح الاشخاص المصورين في خلاياه وازيائهم ومن هيئات الحيوانات والنباتات المصورة معهم . ذلك ان مقرنس الكابلة البلاطية فريد في جنسه ، لكونه ، كما يقول مونوريه دو ڤيلار (Monneret de Villard) ، المقرنس الوحيد المعروف في العالم الاسلامي الذي لم يكتف منمقوه بصور الآرابسك (arabesques) الملومة ، بل عملوا فيه تصويراً حقيقياً على اوسع مدى .

فبفضل هذا المقرنس —يقول الاستاذ المذكور— امامنا مجموعة تصويرية اسلامية يسبق اوانها أوان كل المخطوطات العربية والفارسية التي استنبطنا منها تاريخ التصوير الاسلامي فما اعظم، اذاً، فضل هذا العالم الايطالي الفرنسي الاسم الذي اعتنى بتصوير جميع هذه الرسوم فوتوغرافياً، ودرسها درساً دقيقاً ونشرها ووصفها وعلّق عليها في كتاب نفيس طبعته مكتبة الدولة الايطالية (Libreria dello Stato) في رومة في سنة ١٩٥٠ .

ان هذه الصور ، بخلاف الصور التي في سقوف الكنائس الاخرى وعلى جدرانها ، لا تقص علينا قصصاً ، ولا تتابع بحسب الموضوع ، بل كل صورة مستقلة عن غيرها وكثيراً ما تتكرر في موقع آخر من السقف سداً للفراغ ، وفي هذا يحافظ التصوير الاسلامي على مقصده التنميقي الاصلي . واما المواضيع ، فيمكن تقسيمها على عدة اصناف :

١ — الحيوانات ، واحبّها الى المصورين الطائر الذي يحمل في منقاره وُرَيقة ، والطاووس الذي ينشر ريشه ، والجمل ، والنسر الذي ينقض على الغزال او الارنب .

٢ — النباتات ، واكثرها ورودًا النخل .

٣ — الامير الذي يرفع بيده قدحاً وعلى رأسه عمامة او تاج شرقي (انظر الصورة ٩) . او طرطور ، وعزفة العود والقانون والطار والزمارة والصنج والراقصات (صورة ١٠و١١و١٢).

٤ — الاكوان الخيالية كأبي الهول ، والطائر الذي رأسه رأس امرأة ، والمرأة التي اسفلها ذنب السمكة .

٥ — مناظر الصيد ، خصوصاً الصيد بالباز ، وفصول اخرى من حياة الامراء .

٦ — وفي صورة رجلان متعممان يلعبـان الشطرنج (صورة ١٣) . وفي اخرى امرأة في هودج على متن فيل يقوده فيّال وفي غيرها الهوادج محمولة على متون الجمال .

واكثر هذه الصور لهـا مطابق في المنسوجات الشرقية من ابسطة واقمشة ، فلهذا يظن مونّوريه (Monneret) ان الفنانين الصقليين اتخذوا هذه المنسوجات نماذج لهم وان كان بعضهم اختص بمحاكاة الواقع .

وهذا يعود بنا الى ما قلناه في الطراز في عهد النرمان ، فنكتفي بما ذكرناه في هـذا الشأن في محاضرتنا الخامسة ، كما اننا نضرب صفحاً عن مهارة الصنّاع الصقليين المسلمين في الصياغة وفي نحت العاج بطرق تجمع بين الاسلوب العربي والاسلوب الافرنجي .

الفن العربي في الكنائس الصقلية

لم يقتصر الفن الاسلامي على دخول الكابلّة البلاطية ، بل دخل جميع الكنائس التي بنيت في عهد النرمان كأنه يريـد ان يردّ الى معابد المسيحيين ما استعاره منها عندما اقام مساجده الاولى ، وخلف ارثاً انتهت بعض حصصه الى جملة من الكنائس التي بنيت بعد انقراض الدولة النرمانية .

فانظروا الى البناء الممثل في الصورة ١٤ . الا تحسبونه جامعاً يقيم المسلمون صلاة الظهر تحت قبابه الخمس الحمراء اللون ؟ لا بل هو كنيسة بناها الملك رجار الثاني ودشنها للقديس يوحنا شفيع النسّاك (San Giovanni degli Eremiti) .

ولنخرج من الكنيسة الى صحن ديرها (صورة ١٥) الغـارق في بحر من الاشجار والازهار . بنى رجار هذا الدير منسكاً للرهبان ، ولكنني يوم زرته استحضرت الزوايا التي رأيتها في ليبية واستبدلت في مخيلتي « الاخوان » بالرهبان .

وكنيسة سان كاتالدو (San Cataldo) هي ايضاً عربية في قبابهـا الثلاث الحمراء وفي اعلاها المسنّن على الشكل المغربي وفي تجويف حيطانها تحت اقواس تتتابع على ابعاد معلومة (صورة ١٦) . وهنا رواق دير منرئالي (Monreale) في قرب بالرمو مع اقواسه المهموزة ،

وفسقيتها العربية الطراز النابتة في « طشتها » نخلة حجرية وان كان غير عربي في باقي اقسامه، ولكن الانطباع الذي يتركه في انفسنا المجموع هو التناسب والتآلف (صورة ١٧).

وهذه كنيسة مترتالي (صورة ١٨) مع محاريبها الثلاثة المزدانة باقواس متشابكة مثل اقواس جامع الباب المردوم في طليطلة (اسبانية) (صورة ١٩) . وحجارة هذه الكنيسة نوعان ولونان يتتابعان في عصبات متناوبة كالعصبات البيضاء والسوداء في جامع الازهر في مصر . وبرج اجراسه المربوع الجسم المربع الشكل مثل مآذن افريقية الشمالية (صورة ٢٠) جالس على قاعدة مثل مأذنة جامع الحاكم في مصر .

ويعترف مؤرخ فن القرون الوسطى الاستاذ اميليو لوانيينو (Emilio Lavagnino) بان برج كنيسة لا مرتورانا (La Martorana) العجيب (صورة ٢١) لا يخلو من العناصر العربية في تخطيطه وينادي بانه جوهرة من جواهر الفن العربي في صقلية ، فمها كان، فلا شك ان المآذن استلهمت بروج الاجراس الشرقية والهمت بدورها بروج الاجراس الغربية. وكان سقف كنيسة لامرتورانا مزداناً بكتابات عربية مثل سقف الكابلة البلاطية .

والحاصل ان الفن العربي يتجلى لنا في صقلية في مظهر يعليه شأناً ويزيده مجداً لانه يثبت لنا اقتداره على الخروج من عزلته، وعلى مشاركة الفنون الاجنبية في خلق جمال لا يتقيد بقيود الجنسية والطائفية . والجمال المطلق عين الجمال .

G. Marçais, *Manuel d'art musulman*, Paris, 1926.
—, *L'art de l'Islam*, Paris, 1946.
G. T. Rivoira, *Architettura musulmana*, Milano, 1914.
U. Monneret de Villard, *Le pitture musulmane al sofftiito della Cappella Palatina di Palermo*, Roma, 1950.
G. Galassi, *Roma o Bisanzio*. Libreria dello Stato, Roma, 1953.
H. Terrasse. *L'art hispano-mauresque*, Paris, 1932.
G. Migeon, *Manuel d'art musulman: Arts plastiques et industriels*, Paris, 1927.
E. Lavagnino, *L'Arte Medioevale*, Torino, 1945.
E. Mottini, *Storia dell 'Arte italiana*, Roma, 1949.

فهرس الاعلام البشرية

— أ —

— هـ —

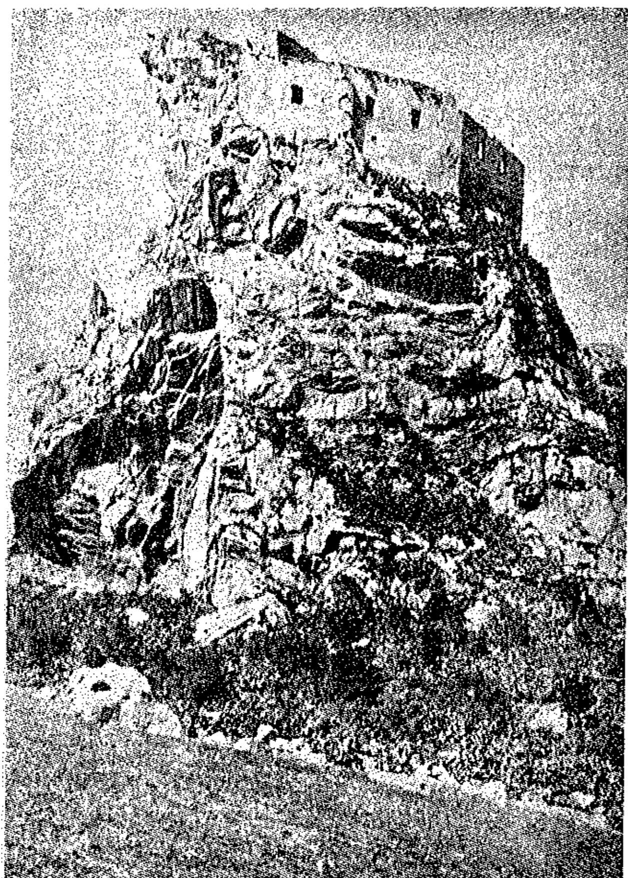
— ي —

فهرس الاعلام الجغرافية

— أ —

— ب —

— پ —

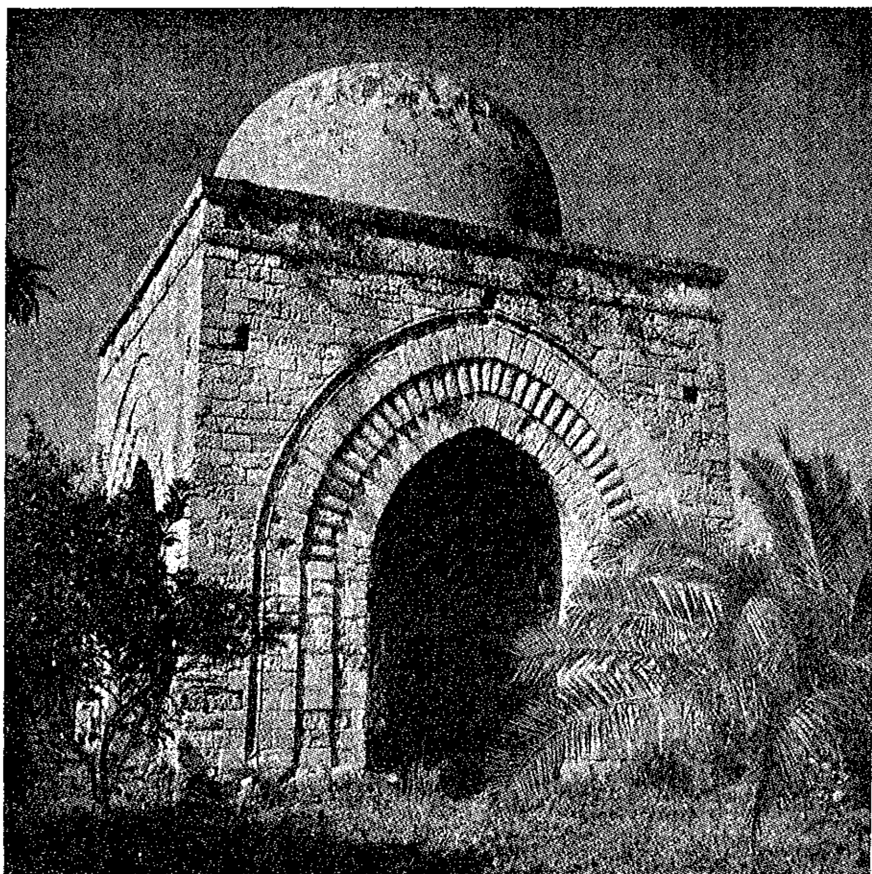


الرسم ١

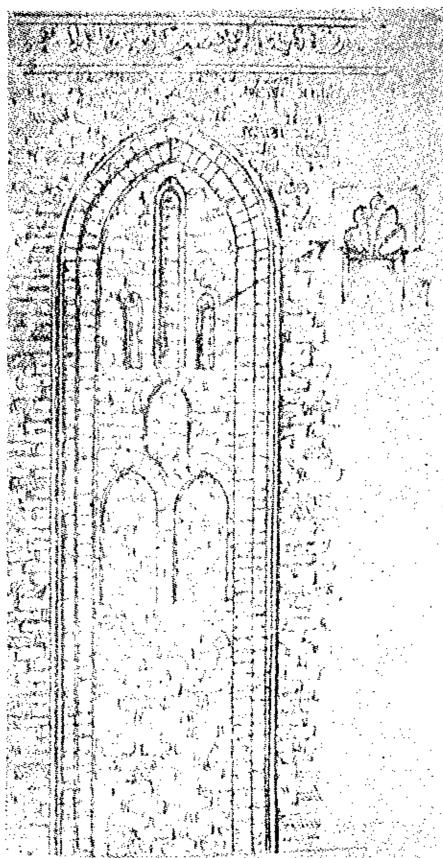
قصر مسميلي

الرسم ٢

قصر الامير جعفر في پالرمو



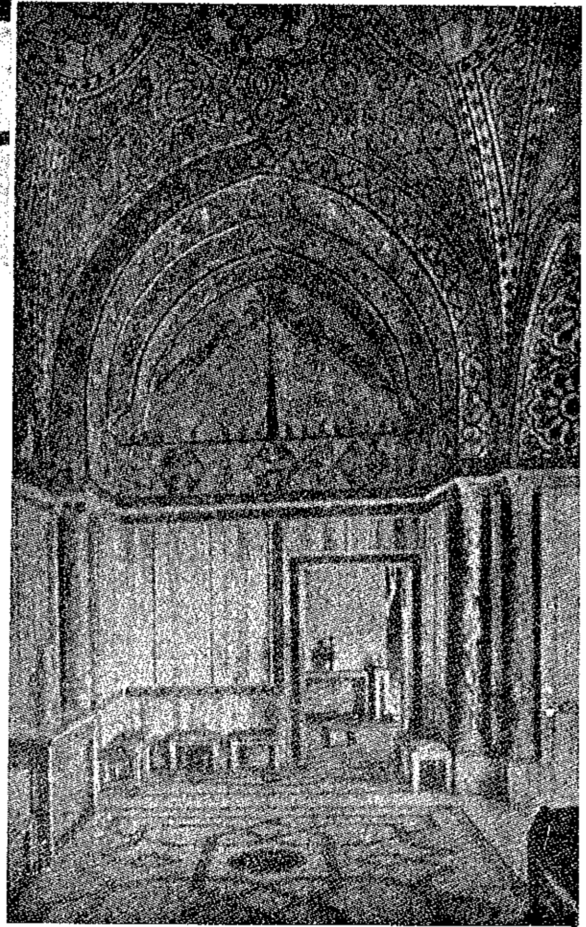
الرسم ٣
● القبة الصغيرة
في پالرمو



الرسم ٤
● القبة
(عن كتاب Marçais)

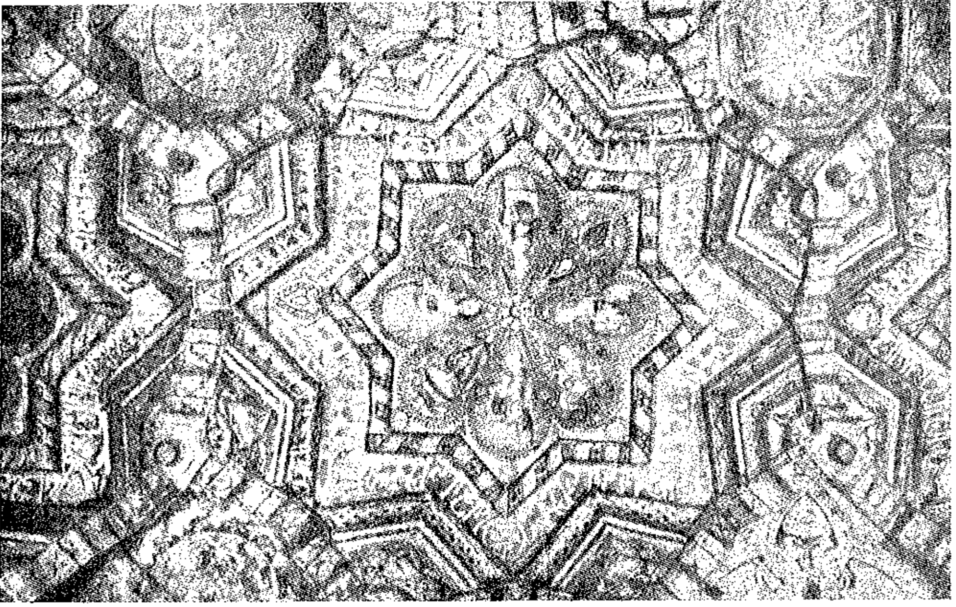
الرسم ٥

قصر العزيزة (La Ziza)



الرسم ٦

قاعة الملك رجار في قصره في پالرمو



الرسم ٨

● كتابات عربية ورقوش في الكابلة البلاطية

الرسم ٧

● كنيسة قصر الملك راجار الثاني (الكابلة البلاطية : داخلها)



الرسم ٩

رجل متعمم في يده قدح (الكابلة البلاطية)



الرسم ١٠

عازف متعمم مصور في سقف الكابلة البلاطية



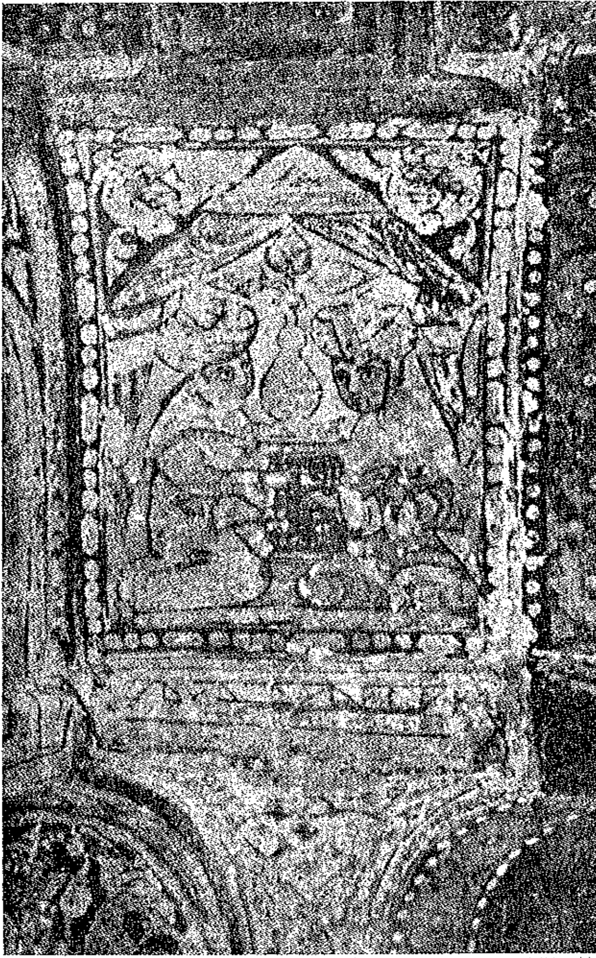
الرسم ١١

عازفتان مصورتان في سقف الكابلة البلاطية



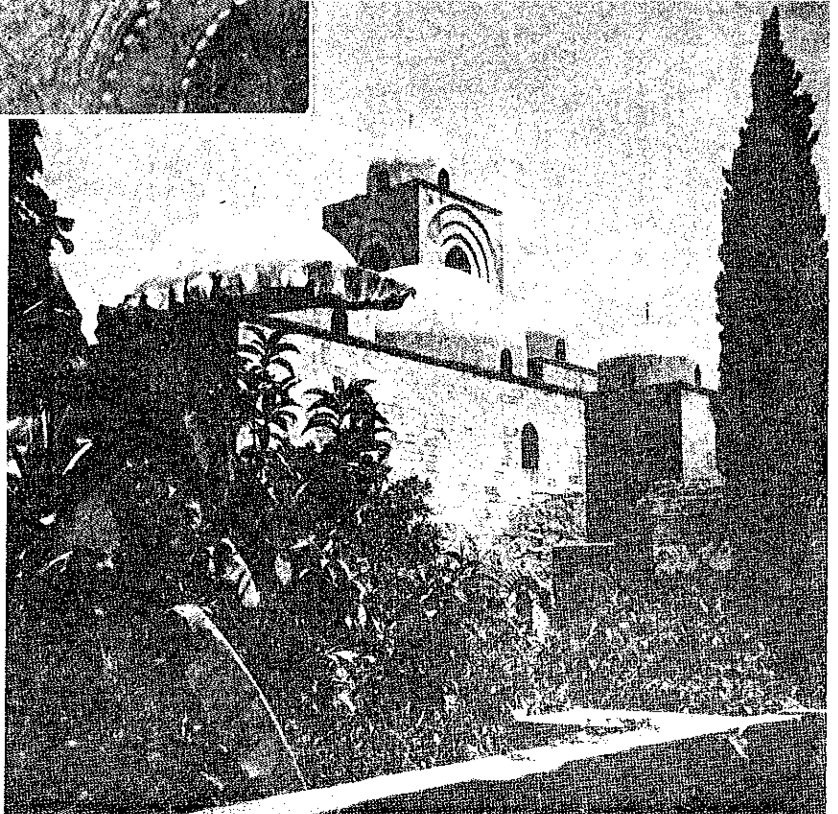
الرسم ١٢

راقصة شرقية



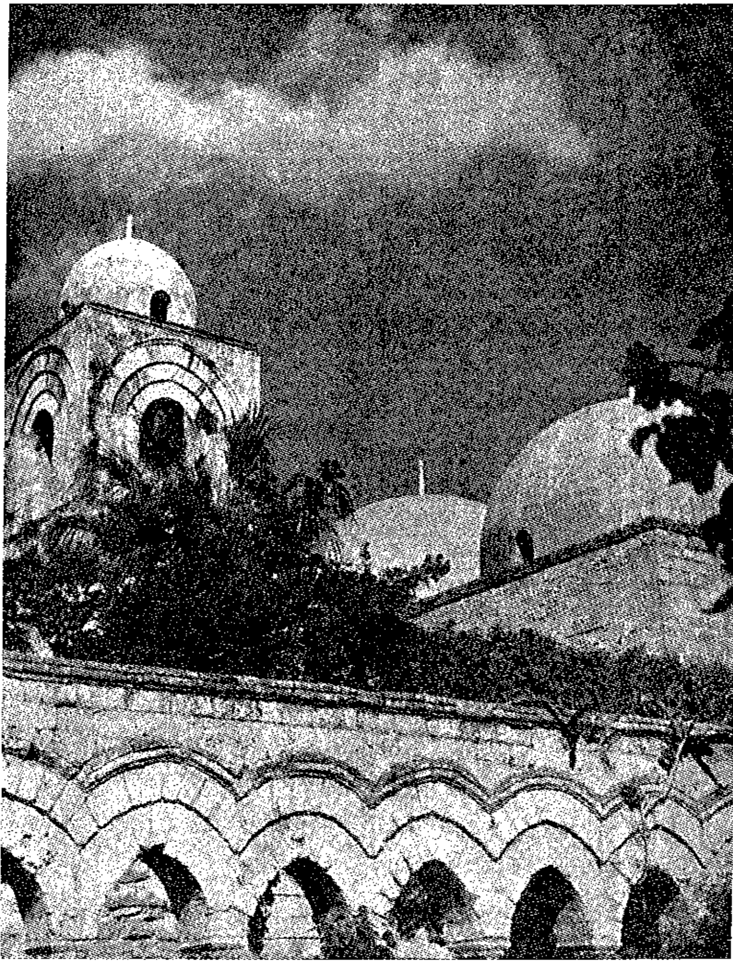
الرسم ١٣

● لاعبا شطرنج متعممان



الرسم ١٤

● كنيسة القديس يوحنا للنساك



الرسم ١٥

● كنيسة القديس يوحنا شفيع النساك في پالرمو وديرها

الرسم ١٦

● كنيسة سان كاتالدو في پالرمو

فهرس الكتب

انجـــزت المطبعـة الكاثوليكيـــة
في بيروت طبع هـــذا الكتاب
في الخامس عشر من ايلول ١٩٦٨